مايكل وِرت

الساموراي

مقدمة قصيرة جدًّا

ترجمة أحمد عبد المنعم

الساموراي

مقدمة قصيرة جدًّا

تأليف
مايكل وِرت

ترجمة
أحمد عبد المنعم

مراجعة
هاني فتحي سليمان

هنـــداوي

الساموراي

مايكل وِرت

Samurai

Michael Wert

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٣ ٣٧١٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠٢١.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لدار نشر جامعة أكسفورد.

Copyright © Oxford University Press 2014.

المحتويات

مقدمة	٩
١- خدمة عائلات المحاربين	١٣
٢- سلطة المحاربين الأوائل	٢١
٣- الحرب والثقافة	٣٩
٤- المحاربون في زمن السلام	٦٩
٥- اختراع هوية الساموراي	٨٩
المراجع	١١٣
قراءات إضافية	١١٧
مصادر الصور	١٢١

إلى زوجتي، يوكو كوجيما ويرت.

مقدمة

في مشهد المعركة الحاسم في نهاية فيلم «الساموراي الأخير» (ذا لاست ساموراي) (٢٠٠٣)، يتزعم البطل، وهو ساموراي متمرد، جيشَه من المحاربين، في هجوم انتحاري ضد الجيش الحكومي العصري الذي كان قد جرى تشكيله حديثًا. لم يكن المحاربون يرتدون سوى ملابسهم التقليدية، وكانوا مسلَّحين بالأقواس والسيوف والرماح، فحصدتهم الأسلحة الرشاشة ومدافع الهاوتزر، بينما وقف الجنرال الحكومي، الذي كان هو نفسه في السابق أحد أفراد الساموراي، يشاهد مترقبًا. اشتمل هذا المشهد على جميع الأفكار المتكررة في الخيال العالمي حول الساموراي؛ التقليدية مقابل الحداثة، والقتال اليدوي مقابل البنادق، والاحتفاء بالموت المشرف. يُعَد الحدث الذي صوَّره الفيلم حدثًا تاريخيًّا؛ حرب الجنوب الغربي في اليابان عام ١٨٧٧، عندما رفض أفراد الساموراي السابقون أن ينصاعوا لسلسلة من القوانين التي حرمت جميع أفراد الساموراي من مكانتهم المتميزة وما صاحبها من رموز؛ فلم يعد بمقدورهم تقلُّد السيوف في الأماكن العامة، أو مواصلة استخدام تصفيفات الشعر العلوية المميزة التي كانت حكرًا عليهم. ثمة وصف أكثر دقة لمشهد المعركة يقع على النقيض من المشهد السينمائي؛ يحتمي الجيش الحكومي الحديث بقلعة — والتي تُعَد أكثر الدفاعات تقليدية على الإطلاق — بينما قصفهم أفراد الساموراي السابقون المتمردون بالمدافع من الخارج. وكما هي الحال مع أي شيء آخر، عادةً ما تكون الصورة التاريخية أكثر إثارة للاهتمام إذا ما قورنت بالصورة الشائعة.

يبدو أن أفراد الساموراي واسعو التغلغل في الثقافة الشعبية، بدايةً من الرواية التي تحولت إلى مسلسل تليفزيوني تحت عنوان «شوجون» (١٩٨٠)، إلى فيلم «الساموراي الأخير»، ولعبة «شبح تسوشيما» (جوست أوف تسوشيما) (٢٠٢٠) الناجحة على جهاز ألعاب بلاي ستيشن ٤، كما يبدو أن الجمهور لا يمل منها أبدًا. بل إنهم يظهرون في أماكن

غير متوقعة؛ اسم الشركة المالكة لسلسلة مَقاهٍ محلية في ميلواكي بولاية ويسكونسن، هو جيري، والذي يدَّعي مؤسسها أنه «يأتي من قانون شرف الساموراي، بوشيدو، والذي يمكن ترجمته إلى «الالتزام الاجتماعي».» قد يحمل معنًى جميلًا، ولكن كان «الالتزام» وسيلة لإقناع أفراد الساموراي بطاعة سادتهم، بصرف النظر عن الخطر المُحدِق بهم أو، على الأرجح، الصعاب التي سيلاقونها.

ليس ثمة نقص في المواقع الإلكترونية التي تتحدث عن الساموراي، ولا يمكن المرء أن يرمي حجرًا دون أن يصيب مدرِّب فنون قتالية يملك وجهة نظر مميزة عن الساموراي. كما أن هناك الكثير من الكتب الرائعة التي تعطي نظرة عامة عن بعضٍ من جوانب معارك الساموراي، وصراعاتهم، وقلاعهم، وما إلى ذلك، إلا أن التنقيب عما هو موثوق به وما ليس بموثوق يمكن أن يكون مهمة شاقة. ومن ناحية أخرى، تتطلب الكتب العلمية الاطلاع على الكثير من المعلومات الأساسية، كما أنها لا تستدعي الإلمام بتاريخ اليابان فحسب، بل تستدعي كذلك الإلمام بتاريخ الصين ودينها وفنونها، والمصطلحات المتخصصة، وتتطلب بعض الكتب التاريخية القديمة إلمامًا لغويًّا كبيرًا.

سأصف الكيفية التي تغيرت بها طائفة الساموراي خلال الفترة من القرن الثامن إلى منتصف القرن التاسع عشر تقريبًا، وسأعرض تنوع المحاربين، وسأُبطِل الأساطير الشائعة، على غرار ما يُسمَّى بقانون الساموراي «بوشيدو»، وكون السيوف «أرواح الساموراي»، والقدرات القتالية المزعومة. لم تنل جميع الفترات في تاريخ المحاربين نصيبًا متكافئًا من التناول؛ فثمة قدر أكبر من التفاصيل عن حياة الساموراي خلال الفترة من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر (الحقبة الحديثة المبكرة)؛ وذلك لأن أغلب أوصاف الغرب للساموراي تتزامن مع محاربي تلك الفترة، ولأن العلماء يعرفون عن اليابان خلال الحقبة الحديثة المبكرة أكثر مما يعرفون عنها خلال العصور الوسطى (من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر). هناك الكثير من الوثائق التي يعود تاريخها إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لدرجة أنه يمكن شراؤها من مواقع المزادات على الإنترنت مقابل عشرات الدولارات. بيعت في مزاد حديث مجموعةٌ مكونة من المئات من الوثائق التي يعود تاريخها إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهي جميعها تخص عائلة واحدة، على موقع «ياهو أوكشن» مقابل ٧٣ ألف ين ياباني، أي نحو ٦٦٠ دولارًا أمريكيًّا. انتهى المطاف ببعض الوثائق اليابانية التي تعود إلى الحقبة الحديثة المبكرة في القمامة. بعد الزلزال والتسونامي وكارثة فوكوشيما النووية في ١١ مارس ٢٠١١، سارع المؤرخون المحليون إلى تصوير

الوثائق التاريخية الموجودة في المستودعات المتهالكة التي كان من المقرَّر هدمها وإعادة بنائها. كان هناك عدد كبير جدًّا من الوثائق، لدرجة أن المتاحف والجامعات المحلية لم تكن تملك مساحة تكفي لحفظ الوثائق التي صُنِّفت على أنها غير مهمة، ومن ثم كانت عرضةً للتخلص منها. تُكتشف وثائق تعود إلى ما قبل القرن السابع عشر بين الحين والآخر ولكن بأعداد أقل بكثير، إلا أنها تحظى بقدر أكبر من العناية.

كلمة أخيرة حول الأعراف. في اليابان، يسبق اسم العائلة اسم الشخص الأول. أستخدم مصطلح «المحارب» مع القرون من التاسع حتى السادس عشر، وأستخدم مصطلح «ساموراي» عند الحديث عن القرنين السابع عشر والثامن عشر، عندما أصبح أفراد الساموراي يشكِّلون مجموعة ذات مكانة اجتماعية محدودة التعريف. «الحاكم العسكري» و«السيد» مصطلحان يشيران إلى الدايميو، ويُقصد بتلك الفئة القادةُ العسكريون الذين كانوا يمتلكون الأراضي ويشاركون في الحروب خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولكن بحلول أوائل القرن السابع عشر، أصبحوا حكامًا غير عسكريين. بعبارة أخرى، قسَّمتُ تاريخ المحاربين إلى نصفين غير متماثلين؛ العصور الوسطى والعصور الحديثة المبكرة، مع اعتبار أوائل القرن السابع عشر خطًّا فاصلًا. ففي تلك الفترة بدأت فئة المحاربين تصير أكثر تحديدًا، وأخذت تلك المجموعة تُضيف تغييرات جوهرية إلى ثقافتها وعلاقتها ببقية سكان اليابان.

الفصل الأول

خدمة عائلات المحاربين

بوجه عام، يُستخدم مصطلح «ساموراي»، حتى في اليابان، مرادفًا لكلمة «محارب»، ولكن هذا الاستخدام غير صحيح. في الواقع، كان لمصطلح ساموراي في الأصل معنًى محدود للغاية، فقد كان يشير إلى أي شخص يخدم نبيلًا، حتى وإن كان في سياق غير عسكري. وتحوَّل تدريجيًّا ليصبح لقبًا للخدم العسكريين لعائلات المحاربين، في واقع الأمر كان المحارب من الطبقة النخبوية في اليابان قبل القرن السابع عشر يشعر بالإهانة إذا ما نُوديَ بـ «ساموراي». كانت هناك مصطلحات أخرى أكثر شيوعًا للمحاربين في اليابان خلال العصور القديمة والوسطى تعكس واجباتهم المختلفة تجاه الدولة، ونبالتهم، وامتيازاتهم الأخرى. يستخدم معظم المتخصصين في اليابان وفي الغرب المصطلح العام «بوشي»، الذي يعني «المحارب».

المحارب مصطلح غامض من فترة ما قبل القرن السابع عشر يُستخدم للدلالة على مجموعة كبيرة من الناس يؤدون وظيفة عسكرية ما. وهو يشمل أي شخص من المتوقع أن يقدِّم خدمة عسكرية للدولة عند الحاجة إلى ذلك، وقد تلقَّى تفويضًا رسميًّا من سلطة حاكمة لفعل ذلك، تشمل تلك السلطات الحاكمة النبلاء، أو البلاط الإمبراطوري في كيوتو، أو أيًّا من المؤسسات الدينية. يمكن أن نصف مصطلح محارب نفسه بأنه غير دقيق؛ لأنه يوحي خطأً بأن الحرب كانت المهنة الوحيدة لهذه المجموعة. فبناءً على الحقبة الزمنية والمركز الاجتماعي، كان المحاربون يحكمون، ويتاجرون، ويزرعون، ويرسمون، ويكتبون، ويعلمون، ويشاركون في أنشطة مشبوهة.

ثمة اعتبار آخر يجب مراعاته عند استخدام مصطلح محارب، ألا وهو القيمة الأخلاقية التي يربطها المعاصرون بذلك المفهوم. تستخدم القوات العسكرية الأمريكية مصطلح «محارب» في برامجها التدريبية المختلفة، مثل «تدريب المحارب الذهني»، وهو برنامج

تأمل مخصَّص للجنود من أجل مساعدتهم في التعامل مع اضطرابات ما بعد الصدمة وتجهيزهم لأهوال القتال. استعان مطور البرنامج بصورة ساموراي للترويج له، «مستندًا إلى قانون الانضباط الذاتي القديم للساموراي». ولكن هذا القانون لم يكن موجودًا. حتى العبارات المستخدمة على نحو تهكمي تفترض وجود صورة محارب حقيقية محترمة — على سبيل المثال، «محارب نهاية الأسبوع» — الأمر الذي يوحي بأن شخصًا عاديًّا مملًّا طوال أيام الأسبوع يمكنه أن يصبح شخصًا آخر أكثر بدائية خلال عطلة نهاية الأسبوع. في هذا الاستخدام، يمثِّل مفهوم المحارب كينونة الشخص، لا مهنةً يؤديها.

ولكن على مدار تاريخ اليابان، كان الناس غالبًا ما يحتقرون المحاربين، فقد صوَّر الفنانون والكُتَّاب المحاربين في صورة حيوانات قاتلة غير متحضرة، ليست أعلى مرتبةً من الكلاب. كان المحاربون يسرقون وينهبون، وأحيانًا يقتلون سكان القرى التي يمرُّون بها. كذلك لم يكن ثمة حب لهم في نفوس الفلاحين، الذين كانوا يخشَون المحاربين لأنهم كانوا الأكثر تأثرًا بغاراتهم التي يشنُّونها بغرض النهب والسلب، والأضرار المترتبة على هذه الغارات. من سخرية القدر أن محبة الساموراي في نفوس العامة ومحاكاتهم لأسلوبهم لم تظهر إلا في عصر من السلام النسبي خلال الحقبة الحديثة المبكرة في اليابان (١٦٠٠–١٨٦٨).

مما لا شك فيه أن المحاربين يقاتلون في المعارك، ولكنهم كانوا يقضون في الواقع جُل أوقاتهم في فعل أمور أخرى. تضمنت تلك الأمور الأخرى محاولة تحسين مكانة عائلاتهم في مجتمع النخبة الذي كان يهيمن عليه النبلاء، أو إدارة الفلاحين العاملين في ضيعاتهم، أو حتى الانخراط في عمليات احتيال عرَضية من آنٍ لآخر، بالنسبة إلى المحاربين الأشد وضاعة. كانت أنشطة الساموراي تتحدد بتعريف مصطلح «محارب» طبقًا لتغيره بتغير العصور. إذا ما سافر أحد أفراد الساموراي عبر الزمن إلى الوراء من القرن التاسع عشر إلى القرن التاسع، فربما لا يُنظَر إليه على أنه ينتمي إلى الفئة نفسها من البشر.

أصبح محاربو الماضي البعيد مصدرًا للترفيه، والقلق، والإلهام لأفراد الساموراي الذين عاشوا في عصورٍ تالية. شكا أحد المعلقين من أفراد الساموراي الذين عاشوا في بدايات القرن الثامن عشر — تلك الفترة التي كانت تتسم بالسلام — من معاصريه قائلًا: «عدد كبير جدًّا من الرجال الآن أصبحوا ضعاف القلوب مثل النساء»، فلم يكن ثمة شبهٌ بينهم وبين المحاربين الحقيقيين من القرن السابق الذي كان مليئًا بالحروب. في القرن الثالث عشر، أسست راهبة بوذية تُدعى هوجو ماساكو إرث زوجها الراحل مينامونو يوريتومو، على أنه

المحارب المؤسس للعشائر التي قاومت تهديد أحد أباطرة كيوتو. ودعنا لا ننسى الجاذبية الكبيرة لآثار الماضي؛ فقد كان أفراد الساموراي ذوو المكانة العالية يسعدون بشراء سيف أو وعاء لشرب الشاي كان مملوكًا في الأصل لأحد مشاهير المحاربين.

استخدم المحاربون المهارات العسكرية وسيلةً لتحسين حياتهم المهنية. كانوا — من منظور سياسي — مجرد دخلاء يمكن استخدامهم كأدوات من جانب النبلاء ذوي النفوذ الذين يحتاجون إلى يد حديدية تمكِّنهم من السيطرة على أراضيهم، أو التجسس على نوايا العائلات النبيلة الأخرى لمعرفة ما إذا كانوا يفكرون في اغتصاب الأراضي. كانت أغلب أراضي اليابان فعليًّا مملوكة للإمبراطور (يُعرف باليابانية باسم تِنُّو، ويُترجَم حرفيًّا إلى «الملك السماوي»)، والذي أرسلته الآلهة إلى الأرض، طبقًا للأساطير القديمة، وكان المحاربون يحمون مصالح النظام الإمبراطوري المتمركز في العواصم القديمة نارا، وناجاوكا، وكيوتو منذ عام ٧٩٤. كانوا خط الدفاع الأول ضد أعمال العنف التي كانت تندلع بالقرب من العاصمة، وكانوا يهاجمون أيًّا من المقاطعات البعيدة عن كيوتو التي قد تمثِّل تهديدًا للنظام، وكانوا يخرجون في حملات للإغارة على الكثير من القبائل «البربرية» التي كانت تقع على أطراف حدود اليابان الشمالية الشرقية أو الجنوبية الغربية.

لا يشمل مصطلح «محارب» المقاتلين الآخرين الذين يجنون قوت يومهم باستخدام العنف؛ كالمرتزقة، وقطاع الطرق، والقراصنة. ولكن قبل القرن السابع عشر، لم تكن مكانة الشخص الاجتماعية مُحدَّدة بدقة، فكان بمقدور بعض ممن يملكون علاقات مؤقتة مع مؤسسة حاكمة أن يشاركوا مشاركة قانونية في الحروب، والحُكم، والتجارة. على سبيل المثال، رغم أن أغلب المحاربين والسلطات الملكية يصورون القراصنة على أنهم قطاع طرق عنيفون يعملون في البحر، فإنهم كانوا يشاركون أحيانًا في الحروب نيابةً عن نظام من المحاربين يُدعى الشوجونية، وهي مؤسسة دينية مثل المعبد البوذي، أو نبيل صاحب نفوذ كبير في العاصمة كيوتو. كانت تلك الأنظمة تحتكر التجارة البحرية، ويضعون القواعد السلوكية للشعوب التي تعيش على طول المسارات البحرية، ويحددون التوقعات منهم، وكانوا يتقلدون سلطات مشابهة لأمراء الحرب أو البيروقراطيات العسكرية.

انتشر جدل حول أصول المحاربين كالنار في الهشيم بين أكاديميِّي اللغة اليابانية والإنجليزية المختصِّين في عصر ما قبل الحداثة في اليابان، ودار جزء منه حول كيفية تعريف مصطلح «ساموراي». هل يُعَدون امتدادًا لجنودٍ من عصور خلت؟ سبق أقدم الأدلة على وجود الجنود المحاربين التاريخ المكتوب، بل وحتى الحضارة اليابانية نفسها، فقد

كانت تماثيل الفخار (أو الهانيوا)، تُصوِّر جنودًا، وخدمًا، وحيوانات، تنتشر في أماكن الدفن القديمة خلال الفترة ما بين القرنين الثالث والسادس. وكانت أذرع تماثيل الجنود ودروعها تعكس تأثرًا بالمحاربين المعاصرين لتلك الحقبة في ممالك الصين وكوريا، وتشاركها أسلوبًا عامًّا يُظهِر وجود نظام بدائي ما، امتد تأثيره إلى أغلب ربوع وسط اليابان وجنوبها الغربي. هل كان الصيادون وملاك الأراضي من المقاطعات الشرقية هم السبب في ذلك؟ أم كانوا المحاربين المحترفين الذين كان البلاط الإمبراطوري في كيوتو يستأجرهم؟ لنفترض جدلًا أنه من الآمن أن نقول إن المختصِّين العسكريين الخاصين ظهروا كمَلمح دائم في التاريخ الياباني في حوالي القرن التاسع، عندما بدأ بعضهم يتقلَّد سلطات أعلى من غيرهم، أهَّلتهم لئلا يخدموا كجنود فحسب.

تعود الأدلة المكتوبة لتاريخ المحاربين إلى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع، عندما اعتمدت الدولة اليابانية الأولى الهيكل الإداري لأسرة تانج الصينية الحاكمة (٦١٨–٩٠٧)، والتي كانت القوة الثقافية والسياسية السائدة في شرق آسيا. فبالإضافة إلى تحوير مختلف الألقاب الإمبراطورية، ورتب النبلاء، والبُنى البيروقراطية، والثقافة؛ حاكى الحكام اليابانيون الأوائل طرق تنظيم أسرة تانج للجيش. فقد كان البلاط الإمبراطوري يطلب من الرجال الخدمة في الوحدات الإقليمية عندما تنشأ الحاجة إلى ذلك. وعلى الرغم من وجود جيش من المجندين على الورق، فإن السواد الأعظم منه لم يكن يحضر إلا من وقت إلى آخر كي يتولى مهام قصيرة الأجل لا تتخطى مدتها ٣٠ يومًا تقريبًا، على سبيل المثال من أجل الخدمة في حرس الحدود. وكانوا يقضون أغلب السنة في متابعة سبل عيشهم الخاصة. كان من المفترض أن يوفر المجندون أسلحتهم ومعداتهم الخاصة، وألا يقضوا الكثير من الوقت في التدريب. وكان الضباط وحدهم هم من يعمل في الجيش لفترات طويلة، وادعى بعض المؤرخين أن هؤلاء الرجال كانوا يزاولون أعمالًا إدارية ولا يشاركون في التدريبات العسكرية المكثفة أو الحروب. تخلَّت اليابان عن جوانب كثيرة من نموذج تانج الإداري في أواخر القرن الثامن، وحل محله بعد ذلك بالتدريج محاربون متخصصون على مدار قرن ونصف.

بوجه عام، وُجدت أنواع مختلفة من المحاربين بدايةً من أوائل القرن الثامن. لم يكن معظم المحاربين «يملكون» أراضي، بالمعنى الحرفي، ولكنهم كانوا يتلقَّون جزءًا من إنتاج الملكية، ويملكون حقوق جمع الضرائب من الملكيات المملوكة لأشخاص غائبين يعيشون في كيوتو، ويقتطعون جزءًا منها لأنفسهم. كما تمتع بعضهم بحرِّية نسبية من تدخلات

السلطات في كيوتو أو ممثليها في المقاطعات. امتلك بعضهم أراضي خاصة بهم، وأسندوا بعضها إلى عائلات نبيلة غير محاربة في كيوتو مقابل الرعاية، أي ضمان عدم مطالبة الآخرين بحق المحارب في الأرض. انتمى محاربون آخرون إلى عائلات نبيلة، ولكنها كانت عائلات أدنى مرتبةً من أغلب العائلات النبيلة ذات النفوذ التي كانت تسيطر على أعلى المناصب الحكومية في كيوتو. من بين هؤلاء المحاربين، أقام البعض علاقات وتحالفات محلية خلال فترة ولايتهم كحكام للأقاليم، ما أعطاهم إمكانية البقاء في مناصبهم على نحو دائم. ثم تحولوا إلى أمراء حرب واعتمدوا على عائلات المحاربين الصغرى، مع الحفاظ على صلاتهم مع الحلفاء والموارد في كيوتو. من منطلق كونها مركز الحكم وأكبر مدينة في ذلك الوقت، كانت كيوتو تتمتع بجاذبية كبيرة في نظر العشائر النخبوية من أنحاء اليابان كافة. وكان الأشخاص سُلَّان العائلات الأرستقراطية في كيوتو يحتلون الطبقات الاجتماعية العليا في المجتمع الإقليمي. وكانت العائلات البارزة في الريف تقلق بشأن الحكام الذين عيَّنتهم حكومة كيوتو لمراقبتهم، وربما شكلت السياسة في كيوتو تهديدًا لقدرة العائلات المحلية على تحقيق الثراء.

لم يكن ثمة نموذج واحد لكيفية تنظيم هؤلاء المحاربين لأنفسهم. فكان ثمة رجال قد يتعاونون معًا لتكوين فِرَق من المحاربين تربطهم صلة الدم، أو الولاء الشخصي، أو الأعداء المشتركون. وكان البعض الآخر يعملون معًا لصالح عائلات نبيلة تعيش في العاصمة، أو لصالح مسئولين إقليميين، أو لصالح أشخاص محليين أصحاب نفوذ. لم يكن مستغربًا أن تمتلك هذه المجموعات المتخصصة قدرة على القتال وتنظيم الموارد للحملات العسكرية أعلى من المجندين الذين عطَّلت الحروب حياتهم، ولم تحسِّنها. وفي نهاية المطاف، اعتمدت الدولة على هذه المجموعات المقاتلة المحترفة لأداء مهام الشرطة والجيش. ولم يكن الاعتماد على المحاربين معناه أنهم استولَوا على السلطة من الدولة، ولم يكن بداية النهاية للملكية، كما كان يُدرَّس في السابق؛ فالبلاط والنبلاء كانوا لا يزالون يملكون السلطة.

كان المحاربون الأكثر قوةً في العصور القديمة والوسطى في اليابان يميلون إلى أن يكونوا هم أنفسُهم نبلاءَ، وبالتالي لم يكن لديهم حافز كبير لتغيير الأوضاع القائمة في مجتمعاتهم. رغم أنهم لم يصلوا أبدًا إلى أعلى مراتب النبالة، فإن العديد من العائلات الكبيرة ذات النفوذ الكبير التي سيطرت على اليابان، مثل عائلتَي تايرا وميناموتو، كانت تنحدر من أبناء الأباطرة الذين أُخرجوا من الصورة لأنهم لم يعودوا ضمن المرشحين لولاية العهد. كان الأباطرة يمنحون ألقابًا لهؤلاء الأبناء الذين أسسوا عشائرهم الخاصة، وزاولوا

مهنًا شائعة لدى العائلات النبيلة؛ العمل موظفين في البلاط الإمبراطوري، أو العمل رجال دين بوذيين مهمين ومؤثرين، أو العمل محاربين محترفين. ولكن لم تتبع جميع العائلات التي تحمل اللقب نفسه، مينامونو على سبيل المثال، المسيرات المهنية نفسها.

ولكن قد يتساءل المرء، هل حاول أي محارب الإطاحة بالإمبراطور في كيوتو أو الاستقلال بمنطقة خاصة به عن العاصمة؟ كان تايرا ماساكادو أول من سيصبح متمردًا على البلاط الإمبراطوري. عاش في شرق اليابان، ليس ببعيد عن طوكيو الحالية، محاطًا بعائلات تايرا الأخرى التي كانت تسيطر على الأراضي في الشرق. كان بعضهم يعملون ممثلين للبلاط الإمبراطوري. عاش ماساكادو في كيوتو لبعض الوقت وعمل موظفًا في البلاط، ولكنه في الغالب شعر بالحنين إلى الشرق، تلك الأراضي البعيدة عن مركز السلطة السياسية والثقافية. ما بدأ كنزاع على الأراضي بين مختلف عائلات تايرا وأقرباء ماساكادو المباشرين، النزاع الذي تجاهله النبلاء في كيوتو، تحول فيما بعد إلى تمرد في عام ٩٣٥ عندما انتقم ماساكادو من رجال تايرا الذين كانوا ممثلي الإمبراطور. ربما لم يكن ماساكادو ينوي التمرد على الإمبراطور، كما أنه لم يكن يملك قوة كبيرة بما يكفي لتهديد كيوتو مباشرةً، ولكنه أعلن نفسه «الإمبراطور الجديد» في الشرق، المنصب الذي لم يدم طويلًا، فقد قُتل في عام ٩٤٠ على يد أحد أبناء عمومته.

كان تايرا كيوموري منافسًا آخر لسلطة الإمبراطور والنبلاء. كان هو أيضًا من نسل أحد الأباطرة، وتربَّى في كيوتو مثل النبلاء الآخرين. وعندما نشب نزاع على الخلافة داخل العائلة الإمبراطورية حول من سيصبح الإمبراطور التالي، قاد كيوموري قوات المنتصر، أما الخاسرون، الذين كانوا في الغالب تحت قيادة مينامونو يوشيتومو، فقد نُفوا أو قُتلوا. وما بدأ كصراع مع القوات التي تمثل الرعاة النبلاء تحوَّل إلى خصومة بين كيوموري ويوشيتومو. وتمكَّن كيوموري من هزيمة يوشيتومو، وبدأ في تجميع ألقاب النبالة، والمناصب الحكومية، وتملك الأراضي الإقليمية. وبحلول أواخر عام ١١٧٠، أضحى يشكل تهديدًا حقيقيًّا للسلطة الإمبراطورية. كما وضع حلفاء في مناصب مهمة في العاصمة كيوتو لم تكن تحت سيطرته المباشرة، وحاول نقل العاصمة إلى المدينة التي أصبحت تُسمَّى حاليًّا باسم كوبي، ولكن دون جدوى. بدأ في تلك المدينة مشروعات بناء ضخمة، بما في ذلك مركزه للقيادة، وموانئ للتجارة مع الصين. كان أول نبيل محارب يحاول السيطرة على جميع المحاربين في اليابان. حتى إنه وضع حفيده الصغير، الإمبراطور الطفل أنتوكو، على العرش. طلب الأمير الذي جرى تجاوز دوره للخلافة، عندما تُوِّج أنتوكو الصغير،

من المحاربين أن يطيحوا بكيوموري. تسبب هذا النزاع في نشوب ما يُسمَّى بحرب جيمبيه (١١٨٠–١١٨٥)، التي استمرت لفترة أطول، وشملت نطاقًا جغرافيًّا أوسع من أي حرب سابقة في تاريخ اليابان. حتى إنها استمرت أكثر من كيوموري نفسه الذي تُوفي لأسباب طبيعية في عام ١١٨١.

لم يكن هناك هوية للمحاربين مفهومة بشكل واسع قبل حرب جيمبيه. فعلى قمة مجتمع المحاربين، كانت العائلات الأكثر قوة جزءًا من طبقة النبلاء، ولم يكن ثمة اختلاف كبير بين لقبَي «محارب» و«نبيل». بوجه عام، المحاربون ذوو الألقاب النبيلة، مثل ميناموتو وتايرا، والذين كانوا يقيمون في الريف غالبًا، لم يملكوا أي دافع للقتال ضد النظام الإمبراطوري الذي ساعد أجدادُهم في بنائه. بل كان الكثير منهم يعملون بمثابة جسور بين كيوتو والريف، وكانوا يخشَون أقاربهم وجيرانهم، وكانت أوضاعهم تمكِّنهم بالكاد من الانتفاض ضد النظام الإمبراطوري. وعلى الطرف الآخر من الطيف الاجتماعي، كان الجنود غير النبلاء ذوو الأصول المتواضعة والمرتزقة غالبًا ما يشاركون في الأعمال غير العسكرية. حتى المحاربون من الطبقة المتوسطة لم يكن لديهم الكثير من القواسم المشتركة مع نظرائهم الملكيين الأعلى مرتبة.

تغيرت هذه الحالة إلى حد ما بعد انتصار ميناموتو يوريتومو في نهاية حرب جيمبيه. فقد بقي في مركز قيادته في كاماكورا، ويُنسب إليه إنشاء أول نظام مركزي من المحاربين، شوجونية كاماكورا (١١٨٥–١٣٣٣). تنص المراجع على أنه مؤسس هوية المحاربين اليابانيين، ولكن هذه الهوية المشتركة شملت فقط المحاربين الذين التفُّوا حوله في كاماكورا. لم تكن بداية ما سُمي بنظام المحاربين منظمةً، ولم تشمل المحاربين دون غيرهم، ولكنها كانت الخطوة الأولى نحو فكرة أشمل لثقافة المحاربين، والهوية التي ستتطور على مدار القرون اللاحقة.

الفصل الثاني

سلطة المحاربين الأوائل

اجتاحت قوات مينامونو يوريتومو اليابان من شرقها إلى غربها، وهزمت جيوش عائلات تايرا في عام ١١٨٥. وبمساعدة النبلاء الذين وُلدوا في كيوتو والحلفاء من المحاربين، أنشأ يوريتومو نظامًا للمحاربين استمر حتى عام ١٣٣٣، عندما دمرت عدة عشائر بارزة من المحاربين نظام كاماكورا نُصرةً للإمبراطور. تحرك رجال بارزون في الشوجونية، وعلى رأسهم يوريتومو، تلَته سلسلة من الأوصياء الذين حكموا نيابةً عن قادة ضعفاء كان يُطلَق عليهم اسم الشوجونات، بفرض سيطرتهم على اليابان على حساب النبلاء. ومن ثم، تتمحور القصة النموذجية لأول نظام للمحاربين في اليابان حول تأسيس الشوجونية، وكيفية تحوُّلها إلى مركز لـ «نظام المحاربين» المزعوم. كان النظام يركِّز على الرجال الذين أداروا الأملاك، وأنشَئوا المحاكم القانونية البدائية، ولديهم علاقات مع النبلاء، كأرباب عمل أو حلفاء أو أعداء. في الثقافة الشعبية، يرتدي هؤلاء الرجال في الغالب الدروع في ساحات المعارك، ولا يتوقفون عن القتال. أما في الواقع، فكان الوقت الذي يقضونه في القتال أقل مما تجعلنا الأفلام والمانجا (الروايات اليابانية المرسومة) نعتقد. إن أفضلَ من يمكنه قصُّ تاريخ المحاربين الأوائل كاملًا النساءُ. كان لجميع أُسر المحاربين التزاماتٌ عسكرية، ولكن كانت تلك التزامات تُنظَّم بواسطة أفراد الأسر على نطاق واسع؛ كانت العشائر الكبيرة تضم نساءً، وعبيدًا، وخدمًا يؤدون الواجبات العادية والمعقدة. وتضمنت تلك الالتزامات العسكرية توفير الطعام والملبس والأعمال اليدوية، ولم تكن تقتصر على القتال في ساحات المعارك.

علاوةً على ما سبق، كان استمرار أيٍّ من عائلات المحاربين يعتمد على مدى كفاءتها في إدارة ثروتها، وسلاسة علاقاتها مع حلفائها، وجودة علاقاتها بالأرستقراطيين غير المحاربين، لا سيما بالنسبة إلى عائلات المحاربين النخبة. هيمنَ الرجال على هذه الأعمال،

شكل ٢-١: تظهر توموي جوزين مرتديةً درعًا، رُسمت في صورة مقاتلة بدلًا من زوجة هادئة. ويصفها الرسام بأنها «تتحكم في رمحها مثلما تتحكم في الساقية».

ولكن كان يصعب أن تنجح في أدائها من دون مشاركة النساء. كان الرجال يتزوجون النساء لاستخدامهن كوسائل لتقوية التحالفات بين عائلات النخبة. ولكن كانت النساء تحتفظ بأي ممتلكات تُعطى لهن أثناء فترة الزواج، ويواصلن الإقامة في ممتلكات أُسرهن، أو في منازلهن الخاصة، بشكل منفصل عن أزواجهن غالبًا، ما جعلهن أكثر استقلالية من نظيراتهن من أفراد الساموراي في العصور اللاحقة. كما امتلكت زوجات المحاربين تأثيرًا هائلًا على مكانة عائلاتهن في المجتمع. على سبيل المثال، كن يتصرفن نيابةً عن أزواجهن المُتوفَّين أو الغائبين، وكان يحق للأرامل أن يتولَّين التزامات عشائرهن العسكرية.

في واقع الأمر، لم تكن شوجونية كاماكورا لتستمر دون النساء. فعادةُ الأرستقراطيين في كيوتو بتكليف المربيات وعائلاتهن بإعداد أطفالهم للمستقبل؛ قدَّمَت ليوريتومو شبكة واسعة من العلاقات مع المحاربين وغير المحاربين كانت ضرورية لنجاحه. وبما أن العديد من أقارب يوريتومو الذكور قُتلوا، فقد اعتمد على النساء اللاتي ساعدن في تربيته وهو طفل. فقد أمددنه بالثروة، وحلفاء ذكور منذ صغره، ومعلومات من داخل العاصمة كيوتو. كانت والدته سليلة عشيرة فوجيوارا، العائلة النبيلة الأكثر قوةً قبل القرن الثالث عشر. ضمنت مكانتُها ليوريتومو منزلةً عالية داخل عشيرة ميناموتو؛ لأن سائر زوجات والده كن من عائلات نبيلة أقل منزلة. وعندما هزم كيوموري عشيرة ميناموتو، يُشاع أنه أبقى على حياة يوريتومو لأن زوجة أبي كيوموري تدخلت نيابةً عنه، فنفى يوريتومو إلى مقاطعة إيزو في الشرق، بعيدًا عن مركز الثروة والقوة في كيوتو. نشأ يوريتومو هناك تحت رقابة هوجو توكيماسا، رئيس عائلة صغيرة مجهولة، تمتُّ بصلة بعيدة إلى عائلة تايرا، والذي كان يبلغ من العمر ٢٢ عامًا فقط. وكما هي الحال مع نبلاء كيوتو الآخرين، ترعرع يوريتومو في حياة منعَّمة، ولا بد أنه صُدم عندما انتقل إلى العيش في منطقة ريفية جدًّا وهو في سن المراهقة.

اعتنقت عائلات المحاربين النخبة، مثل «عائلة ميناموتو»، نموذج الزواج وتربية الأطفال الذي يتمحور حول النساء. في ثقافة نبلاء كيوتو، كانت المربيات والمرضعات ينحدرن من عائلات نبيلة صغيرة، وكان الصبية الذين وُضعوا تحت رعايتهن يلعبون ويتعلمون مع أطفال هؤلاء النسوة. ولأن هؤلاء الصبية نشَئوا معًا منذ نعومة أظافرهم، فإنهم غالبًا ما كانوا يصحبون حلفاء موثوقين عندما يكبرون، بغضِّ النظر عن فروقات المكانة الاجتماعية ضمن هرم النبالة. ضمنت النساء النبيلات اللاتي ربَّين يوريتومو طفلًا أن يحيا حياة لائقة في إيزو حتى سن البلوغ.

على سبيل المثال، ظلت إحدى مرضعات يوريتومو، الراهبة هيكي، ترسل له الأرز باستمرار، وهو مظهر من مظاهر الثراء. كانت هي من تدير شئون عائلتها بعد وفاة زوجها، وأصبح الوريث الذي تبنَّته، هيكي يوشيكازو، أحد أوثق حلفاء يوريتومو، وأحد أهم مستشاري الشوجونية بعد وفاة يوريتومو. وبالمثل، أصبح زوج ابنتها، أداشي موريناجا، مستشارًا موثوقًا ليوريتومو، وقدمت عشيرته الدعم الاقتصادي الذي كان يوريتومو بحاجة ماسَّة إليه. بل إن ابنة هيكي عملت مرضعة لابن يوريتومو، الشوجون الثاني ميناموتو يوري. وتوسطت مرضعة ثالثة بين يوريتومو وحفيدها،

ميوشي ياسونوبو، الذي خدم يوريتومو في وظيفة مكتبية لا وظيفة عسكرية. في الواقع، كان الذَّكر الوحيد القريب الأكبر سنًّا الذي أمكن يوريتومو أن يعتمد عليه أثناء وجوده في إيزو هو خاله، الراهب البوذي يوهان، الذي كان يرسل خادمًا إلى إيزو مرة واحدة كل شهر حاملًا أخبار كيوتو إلى يوريتومو.

لم يكن مقدرًا ليوريتومو أن يكون عظيمًا، بالرغم من أن المحاربين في القرون اللاحقة مجَّدوه. فقد قضى معظم حياته في الخفاء منذ بلوغه. وظل على هذه الحال حتى بلغ الثلاثينيات من عمره، أي منتصف العمر بالنسبة إلى تلك الفترة، ثم هاجم عشيرة تايرا وبدأ بإنشاء شوجونية كاماكورا، ولكن لم يعش حتى يرى اكتمال تلك المؤسسة. ساهمت خلفيته، والمناصرون له، والبيئة السياسية والاقتصادية لعائلات الشرق في نجاحه في توسعة سلطات المحاربين، وهي العملية التي استمرت طويلًا حتى بعد وفاته.

نبعت قدرة يوريتومو على جمع الحلفاء حوله من استغلاله مخاوفهم الاقتصادية. لم تكن عائلات المحاربين تمتلك أراضي خاصة بها، ولكنها كانت تستطيع استغلال الأراضي ومواردها، بشرية كانت أو مادية، من خلال أداء مختلف الواجبات الإدارية والشرطية التي منحهم إياها أصحاب الأراضي الغائبون. لم يكن المحاربون يملكون القدرة على تعيين أو نقل تلك الواجبات، ولم يكن للمحاربين أن يأملوا في الارتقاء إلى الطبقات العليا من النبلاء التي ستجعلهم ملَّاك الأراضي. فعلى سبيل المثال، لم يكن باستطاعة تايرا كيوموري أن يكون مالكًا للأراضي، وكل ما استطاع فعله هو أنه عيَّن نفسه حاميًا وحاكمًا للأراضي. وكان عليه أن يقلِّد ما فعله نبلاء سابقون عن طريق محاكاة ما فعلَته عائلة فوجيوارا، بأن توَّج أحد أحفاده إمبراطورًا.

بالإضافة إلى انعدام الأمان الاقتصادي، كانت ثمة تهديدات إقليمية من الخصوم المجاورين أو أفراد العائلة الذين قد يأخذون الأراضي أو الألقاب عنوةً. ولكن أكبر تهديد كان ينبع من داخل عشيرة المحارب، على العكس من المتوقع. لم يكن مفهوم البِكرية (الابن الأكبر يرث كل شيء) مطبقًا، فكانت وفاة زعيم العشيرة تؤدي إلى صراعات فورية بين الأقارب والأعمام، والأبناء من نساء مختلفات عشن بشكل منفصل عن أزواجهن. بالنسبة إلى النبلاء المحاربين ذوي المنازل الدنيا، أو العشائر التي لم تكن مقراتها تقع في كيوتو أو حولها، كانت عائلة الأم هي من تربِّي الأبناء، ومن ثم تدخل عائلةُ الزوجة صراعَ السيطرة على الثروة والنفوذ.

عندما دعا ولي العهد الإمبراطوري، موتشيهيتو، الناس لعزل كيوموري من منصبه، أخذ الذين استجابوا لدعوته في الحسبان السياسات الداخلية للعشيرة، والعلاقات مع

النبلاء في كيوتو، والخصومات الداخلية عند اتخاذ القرار بما إذا كانوا سيتصرفون، وكيف سيتصرفون. قضى يوريتومو الكثير من وقته في قتال الأقارب والعشائر ذات التحالفات القديمة مع مينامونو خلال المراحل الأولى من حرب جيمبيه. فمنذ بداية الحرب، تحرك رجال مينامونو الآخرون — على غرار يوريماسا الذي هُزم في عام ١١٨٠، وابن عم يوريتومو، يوشيناكا، الذي تحرك أيضًا ضد كيوموري — لمنافسة يوريتومو في مساعيه. جمع يوريتومو حوله المحاربين الذين ضمن ولاءهم عبر وعوده لهم بمنحهم الألقاب وامتلاك الأراضي، ومبررات لمهاجمة خصومهم المحليين. كما قدَّم بديلًا عن السلطة المركزية في كيوتو لمن يعيشون في الشرق. في واقع الأمر، بمجرد أن أوقعت قوات تايرا الأمير موتشيهيتو في الأسر ثم قتلته، أعلن البلاط الملكي، الذي كان واقعًا تحت سيطرة عائلة تايرا، أن يوريتومو متمرد. وبالتالي، على النقيض من كيوموري الذي ظل طوال مسيرته تابعًا للحكومة الإمبراطورية، كان يوريتومو لديه القدرة على مصادرة الأراضي من أعدائه بدلًا من تسليمها للإمبراطور.

لم تَسِر حرب جيمبيه طبقًا للمتوقع، فقد مات بطلها الأول موتشيهيتو، وعدوه كيوموري، في عامَي ١١٨٠ و١١٨١ على الترتيب. حاصر مينامونو موتشيهيتو وأنصاره وقتلهم، بينما مات كيوموري بسبب حمَّى شديدة، حتى إن النسخة الأدبية للأحداث في «قصة هيكي» وصفتها بأنها كانت ناجمة عن حراس الجحيم ونيرانها، التي جاءت لتأخذه.

كان يوريتومو مشغولًا بقتال الأعداء المحليين والمنافسين، وبناء مقر وحكومة في كاماكورا حتى عام ١١٨٤، عندما حشد جيوشه في اتجاه كيوتو. في عام ١١٨٥، طارد أخوه غير الشقيق يوشيتسوني عشيرة تايرا أثناء انسحابهم نحو جنوب كيوتو. كان يوشيتسوني، وليس يوريتومو، هو من قاد المعارك الأكثر روعة، بما في ذلك المعركة النهائية على طول ساحل بحر دان نو أورا، في مكان بعيد يقع جنوب غرب كيوتو وكاماكورا. دمرت قوات مينامونو فلول عشيرة تايرا، بينما قفزت النساء النبيلات من عشيرة تايرا في بحر دان نو أورا وغرقن، وكانت واحدة منهن لا تزال تحتضن الإمبراطور الطفل أنتوكو حفيد كيوموري. كانت هزيمة محاربي تايرا والنساء النبيلات والخدم مأساوية للغاية، حتى إن الأسطورة المحلية تدَّعي أن أرواح محاربي عشيرة تايرا طبعت نفسها على قشور السرطانات الصغيرة.

لا يمكن الحط من أهمية حرب جيمبيه في تاريخ المحاربين اليابانيين، وحصرها في قائمة تضم المنهزمين والمنتصرين، أو المكاسب والخسائر. لم يكن لدى الإمبراطور خيار

سوى الاعتراف بأن يوريتومو هو المحارب المهيمن في اليابان، ما جعله «قائد» (شوجو) جميع مقاطعات اليابان. وأعاد ليوريتومو رتبته في القصر، وألغى إعلانه بأنه متمرد، وأقر بحقه في تعيين المحاربين مديرين للممتلكات في جميع أنحاء اليابان. ولكن المحاربين لم يسيطروا على اليابان، حتى يوريتومو نفسه كان يتوق إلى الحصول على رتبة نبالة من القصر والاعتراف من كيوتو. ظهر يوريتومو في اللوحة التي تحمل صورته مرتديًا ملابس الأرستقراطيين، وليس محاربًا يرتدي زي القتال. غرست الحرب شعورًا بالقلق في نفوس طبقة النخبة كاملة، ويشمل ذلك النبلاء في كيوتو، وأعضاء المؤسسات الدينية، والمحاربين، ويوريتومو وحلفاءه، والعائلات المحلية البارزة. لم يعد المحاربون «يخدمون» النبلاء في كيوتو فحسب، بل أصبحوا يتدخلون في صلاحيات الحكم في كيوتو، وهي عملية لم يتمكن أحد، حتى يوريتومو، من السيطرة عليها تمامًا.

كاماكورا مقر يوريتومو

أصبحت كاماكورا — وهي قرية متواضعة تنتمي أصول مينامونو لها — مركزًا للسلطة خلال ثمانينيات القرن الثاني عشر. كان يُطلَق عليها «قصر أوكورا» في ذلك الوقت، وكانت مركز ما أصبح يُشار إليه الآن بشوجونية كاماكورا، أول نظام محاربين في اليابان. وفي جميع أنحاء اليابان، أعلن المحاربون الذين أرادوا الاستفادة من نجاح يوريتومو أنهم أيضًا كانوا تابعيه، وكان يُطلَق عليهم «خدم» (جوكينين)، في محاولة منهم لإضفاء صبغة شرعية على مخططاتهم المحلية. تسلمت مكاتب الشوجونية، التي كان يديرها نبلاء أقل منزلة من كيوتو ورهبان ومحاربون، طلبات للحصول على تبعيتها، وحاولت التحكيم في دعاوى قضائية ضد المحاربين من قِبَل محاربين آخرين وأشخاص ليسوا محاربين.

إن ما جعل تأسيس الشوجونية لحظة فارقة هو أنها غيَّرت إلى الأبد من أساليب تعامل مجموعات المحاربين فيما بينها. صحيح أن هذا التغيير اقتصر على من يعيشون في مدينة كاماكورا نفسها، وأغلبهم كانوا من أتباع يوريتومو وموظفي الشوجونية، لكنه وفر للمحاربين فرصًا لأن يلتقوا يوميًّا. قبل القرن الثاني عشر، كان معظم المحاربين يتعاملون مع أفراد العائلة والخدم والأتباع الذين ربما كانوا يخدمونهم فقط، ونادرًا ما كان يلتقي المحاربون من العشائر التي لا توجد بينها علاقات، باستثناء أعمال الحراسة العرَضية في كيوتو أو الحملات العسكرية. بعبارة أخرى، أصبحت الشوجونية، وخاصة قصر يوريتومو نفسه، مكانًا حيث تطوَّر المحاربون ليصبحوا جماعة اجتماعية، جماعة

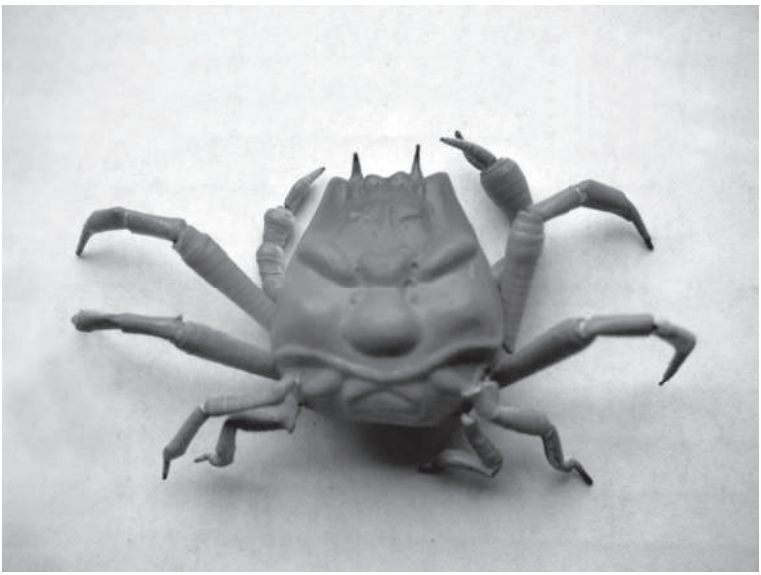

شكل ٢-٢: تروي أسطورة شعبية كيف تحول محاربو عشيرة تايرا المهزومون إلى سرطانات مثل تلك التي تعيش في البحار المحيطة بجنوب غرب اليابان. يُقال إن السرطانات تجسد أرواح المحاربين الغاضبين الميتين، لا سيما أولئك الذين قُتلوا في المعركة البحرية الحاسمة في البحر على طول ساحل دان نو أورا، والتي أنهت حرب جيمبيه (١١٨٠–١١٨٥).

حصرية. كان أغلب هؤلاء المحاربين على صلة مباشرة بيوريتومو. وعمل القصر كمكان للاجتماعات الرسمية والمناسبات الاجتماعية. كما أصبح مكانًا لتعزيز الروابط بين عائلات المحاربين وترتيب الزيجات وإقرار العقوبات. تداخلت الأعمال الحكومية اليومية مع الأحداث الاجتماعية. فعلى سبيل المثال، قتل يوريتومو أحد أتباعه أثناء لعب إحدى ألعاب الطاولة (سوجوروكو). أما خارج القصر، فكان المحاربون يصطادون معًا ويشاركون في الاحتفالات التي كانت تتضمن طقوسًا دينية زائفة وعسكرية؛ على سبيل المثال، جولات مصارعة السومو أو الرماية من على ظهور الخيول. وفرت هذه الأنشطة للمحاربين فرصًا لتعزيز الروابط فيما بينهم ومع الشوجونية، بشكل منفصل عن النبلاء غير المحاربين في كيوتو. رغم ذلك، ظلت الروابط مع النبلاء في كيوتو، خاصة المصاهرة، مهمة بالنسبة إلى المحاربين طوال بقية التاريخ الياباني.

شكل ٢-٣: كان نخبة المحاربين في اليابان القديمة يقدِّرون الألقاب التي ينعم البلاط الملكي بها عليهم أكثر من مكانتهم باعتبارهم محاربين. الطريقة الوحيدة التي قد يخمِّن بها الناظر إلى هذه صورة أنها لمحارب، يُقال إنه يوريتومو، هي من السيف القصير المستقر على فخذه.

لم يكن كل أتباع يوريتومو يعرفون بعضهم بعضًا، وادعى كثيرون كذبًا أنهم من أتباعه. ولم يتمكن من التفرقة بين خدمه الحقيقيين وغير الحقيقيين إلا في عام ١١٨٩، عندما أمر خدمه بأن يتبعوه إلى حرب ضد الثوار في مدينة هيرايزومي الشمالية. سُلبت من الخدم الذين عصَوا أمره ألقابهم وامتيازاتهم التي لم يكن لهم غنًى عنها. في الغالب، كان المحاربون يهتمون في الأساس بالقضايا المحلية، ولم تمثل لهم العلاقات مع الشوجونية إلا أمرًا ثانويًّا. فكان الولاء للشوجونية ضعيفًا في بعض الأحيان، ولم يمتد ليشمل العدد الكبير من المحاربين في أنحاء اليابان الذين لم يكونوا من أتباع يوريتومو.

وضع يوريتومو، مثلما فعل كيوموري من قبله، النبلاء الموالين له في مناصب حكومية مهمة في كيوتو أثناء إنشائه مقره المستقل. لم يكن يوريتومو يملك خطة طموحة لحكمه، وطالب المحاربين بأن يلتزموا بالممارسات المحلية والأسس التي وضعها النبلاء. علاوة على ذلك، لم يؤدِّ انتصار يوريتومو إلى عصر اتسم بسيطرة المحاربين. فقد كبح هو والشوجونية طموحات المحاربين؛ فلم يستولوا على حكومة كيوتو أو يدمروها. وطوال ما تبقى من القرن الثاني عشر، وجزء من القرن الثالث عشر، كانت كاماكورا شريكًا صغيرًا لكيوتو في الحكم. تطور قسم كبير مما يُعرف باسم نظام كاماكورا شبه الحكومي بعد عام ١١٩٩، عندما مات يوريتومو بطريقة ليست غريبة على المحاربين النخبة؛ السقوط من على صهوة حصان.

هوجو كاماكورا

طبقًا للعرف السائد بين عائلات النبلاء والمحاربين على حد سواء، تربَّى أبناء يوريتومو على يد نساء ورجال من أقارب والدتهم، الراهبة الأرملة هوجو ماساكو. فكانت هي حلقة الوصل الشخصية الأوثق بين يوريتومو والشوجونية. هذا وضعها في مركز الصراع على السيطرة على الشوجونية الذي اندلع بين أخيها (ياسوتوكي)، ووالدها (توكيماسا)، وابنها (يوري)، وعائلة زوجته (الهيكي)، وحلفاء يوريتومو. على الرغم من أن العديد من الأتباع حاولوا الحفاظ على إرث يوريتومو من خلال ماساكو، فإن آخرين تحدَّوا هذه السلطة؛ فلم يكن الولاء الأعمى هو المبدأ السائد. قُتل ما يقرب من دزينة من أعضاء عائلات هيكي وهوجو وميناموتو خلال النزاعات على الخلافة التي تلَت ذلك، وظهرت ماساكو كواحدة من القلائل الذين تمسكوا بالسياسات الشوجونية من أواخر القرن الثاني عشر إلى أوائل القرن الثالث عشر.

كانت ماساكو على صلة أوثق بعائلتها الأصلية؛ عائلة هوجو، بغضِّ النظر عن كونها أمًّا حريصة على سلامة ابنها يوري، الشوجون الثاني، وداعمة له. ووفقًا للسجل التاريخي من أواخر القرن الثالث عشر تحت عنوان «مرآة الشرق»، كان يوري زعيمًا ضعيفًا. فبعد وفاة والده بفترة قصيرة، أرسل يوري أحد أتباع يوريتومو الموثوقين في مهمة زائفة على أمل سرقة عشيقة الرجل منه أثناء غيابه. عاد التابع إلى كاماكورا بعد أن علم بالخدعة التي تعرض لها، فخطط يوري لمهاجمة منزل التابع بشكل استباقي. احتلت ماساكو منزل التابع لمنع هجوم ابنها، ثم أرسلت ليوري رسالة توبيخ. كما أجبرت التابع على

أن يقطع على نفسه وعدًا بألا يحاول الانتقام في وقت لاحق. حتى رجال ميناموتو طلبوا الحماية من ماساكو، مثل زينجو، الأخ غير الشقيق ليوريتومو. لكنها اعتبرت زينجو تهديدًا محتملًا لعائلتها، فرفضت أن تحميه، واعتُقل في نهاية المطاف وقُتل.

تسببت محاباة ماساكو لأخيها، بدلًا من ابنها يوري، في تقريب يوري من أصهاره، عائلة هيكي، أكثر؛ مما جعل المواجهة بين عائلتَي هيكي وهوجو حتمية. استغلت عائلة هيكي يوري للحصول على مناصب في الشوجونية، وأحكموا سيطرتهم على أبنائه الذين سيرثون لقب الشوجون. على سبيل المثال، تخيل كبير عائلة هيكي، يوشيكازو، حفيده يرث لقب الشوجون بعد يوري، مانحًا عائلة هيكي هيمنة على الشوجونية. ولكن طرأت على هوجو توكيماسا الفكرة نفسها، فأمر بإعدام وريث يوري، ومعه بعض من أفراد عائلة هيكي. في عام ١٢٠٣، أُجبر يوري على التقاعد بواسطة ماساكو ووالدها توكيماسا بعد أن أُصيبَ بالمرض. وعندما عرف توكيماسا أن يوري يخطط لاغتياله، قُتل يوري أيضًا، ما أمَّن النصر لعائلة هوجو. وبطبيعة الحال، كان لتوكيماسا، بصفته كبير عائلة هوجو، تصوره الخاص لمستقبل الشوجونية؛ أراد أن يسيطر أطفاله من زوجته الثانية عليها. ولكن كانت ماساكو تفضل أن يسيطر أخوها عليها. في عام ١٢٠٥، اعتقلت والدها وسيطرت على الشوجونية بمشاركة أخيها يوشيتوكي.

تفاقم التوتر بين عائلات المحاربين بسبب علاقات المحاربين بالحكومة في كيوتو. وبمجرد أن أُصيبَ يوري بالمرض ومات، نُصِّب الابن الأصغر شوجون، وهذا الابن كان اسمه سانيتومو، ويبلغ من العمر أحد عشر عامًا. ولكنه كان أرستقراطيًّا أكثر من كونه محاربًا، فقد كان يشارك في الأنشطة التي ترتبط عادةً بنبلاء كيوتو. درس الشعر الكلاسيكي بهمة، وتعلم على يد أحد أعظم الشعراء الكلاسيكيين، فوجيوارا نو تيكا. كما حافظ على علاقات وثيقة نسبيًّا مع نبلاء كيوتو، ومنهم الإمبراطور جو توبا. كان سانيتومو، مثل والده، يعتبر لقب «شوجون» أقل شأنًا من الألقاب التي مُنح إياها ضمن التسلسل الهرمي للنبالة. حتى إنه تجاوز يوريتومو في هذا المجال، حيث مُنح لقبًا إداريًّا مرموقًا، «وزير اليمين»، وهو منصب كان ذا طابع رمزي في ذلك الوقت، مهمته أن يشرف على مجلس الدولة في كيوتو. ولكنه لم يستمتع بهذا اللقب إلا لساعات قليلة، فقد قتله ابن أخيه، ابن يوري، خلال الحفل، متهمًا عمه بقتل والده. وبذلك، انتهى نسل يوريتومو بمقتل سانيتومو في عام ١٢١٩.

كانت علاقة سانيتومو بالنبلاء تمثل فترة ازدهار محتملة بين البلاط والشوجونية. وبما أنه لم ينجب وريثًا، فقد توسطت ماساكو لعقد اتفاق مع جو توبا في عام ١٢١٨

قد يصبح بموجبه أميرٌ إمبراطوري الشوجون الرابع. راق هذا الاحتمال جو توبا، فبذلك سيكون قادرًا على التأثير في الإمبراطور الجديد والشوجون الجديد على السواء. ولكن عوضًا عن ذلك، وفَّر مقتل سانيتومو فرصة ذهبية لجو توبا لتحقيق ما حاول جو شيراكاوا تحقيقه في أعقاب حرب جيمبيه؛ إخضاع المحاربين لسلطة كيوتو.

نظام جوكيو

لم يكن هجوم جو توبا على الشوجونية، المعروف باسم حرب جوكيو (١٢٢١)، والذي سُمي تيمنًا باسم سنة تولِّي الحكم، يستحق الذكر كحدث عسكري. فقد واجهت مجموعة متنوعة من محاربي جو توبا، بعضًا من خدم كاماكورا، والعديد من المحاربين من الغرب ليسوا تابعين للشوجونية، عائلة هوجو وأنصارها. كان كل جيش مكونًا من نحو ١٠٠٠ جندي، واستمر القتال لأقل من شهر. ولكنها كانت حربًا مهمة بسبب الدور الذي لعبته في إبعاد السلطة عن يد الإمبراطور وبلاطه، ووضعها في يد الشوجونية. ونُفي على إثرها ولي العهد والإمبراطور وثلاثة أمراء متقاعدين. لعبت ماساكو في هذه الحرب أيضًا دورًا حاسمًا عبر مناشدة حس الولاء لدى محاربي عائلة هوجو لزوجها المتوفَّى، هذا إذا كانت القصص التي تتحدث عن خطابها حقيقية. ربما حفز الولاء بعض المحاربين من كلا الجانبين، ولكن استخدم بقية المحاربين الحرب ذريعة لمهاجمة خصومهم. علاوة على ذلك، كان من المحتمل أن يضعف نصر جو توبا سلطة المحاربين في جميع أنحاء اليابان، عوضًا عن تعزيزها. على أي حال، استغرق الأمر من جيش عائلة هوجو شهرًا واحدًا فقط لإلحاق الهزيمة بقوات جو توبا.

اكتمل تطور الكثير من الألقاب والمناصب والبُنى الحكومية لشوجونية كاماكورا خلال القرن الثالث عشر في ظل سيطرة عائلة هوجو بعد انتصارهم في الحرب. لم يكن حكم عائلة هوجو خاليًا من العيوب، ولكن كان المحاربون يتوقون إلى الحفاظ على استقرار الريف وحماية أنفسهم. فعلى الرغم من أنهم لم يكونوا يناصرون عائلة هوجو بإخلاص، فقد كانوا على استعداد للتعاون مع الشوجونية في تلك الفترة. واستجابت الشوجونية لهذه المخاوف بأن أشركت عددًا أكبر من المحاربين في حكم الشوجونية.

عيَّنت الشوجونية المزيد من المحاربين، من بينهم امرأة واحدة على الأقل، مديرين للولايات في جميع أنحاء اليابان، خاصةً في المناطق التي تعجُّ بمناصرين جو توبا المنهزمين، والمناطق التي لم يكن بها مديرون قبل إنشاء الشوجونية. وبدلًا من اتباع قواعد جباية

الضرائب الكثيرة التي كانت معمولًا بها قبل حرب جوكيو، حاولت الشوجونية توحيد قواعد جبايتها في جميع الولايات. لم تكن تلك السياسات التوسعية لتحقِّق النجاح في ظل حكم الشوجونية الأولى، عندما لم يكن يوريتومو وخلفاؤه المباشرون يملكون القوة البشرية أو المعرفة لمجابهة سياسات كيوتو المتقدمة. ففي تلك الفترة، كانت الشوجونية تابعة لقيادة كيوتو، كانت تحكم مع كيوتو وليس ضدها. ولكن بعد حرب جوكيو، وسَّعت الشوجونية من سلطات المحاربين، وكثَّفت من اختراقها لجميع مفاصل الدولة في اليابان.

كلفت عائلة هوجو حكامًا عسكريين بإنهاء حالات التمرد، والقبض على المجرمين، والدفاع عن السواحل ضد القراصنة، ومحاكمة المجرمين وعقابهم، في المناطق البعيدة جنوبي اليابان. كان يمكن هؤلاء الحكام العسكريين أن يعبروا الحدود بين الولايات والأراضي العامة، على النقيض من المحاربين المحليين. ومع ذلك، لم تكن تكليفات منصب الحاكم العسكري دائمة، فلم يكن يقع ضمن سلطة الحاكم فرض الضرائب أو التصرف باستقلالية عن الشوجونية، أو التعدي على أراضٍ مملوكة لغير المحاربين.

على سبيل المثال، لم يُسَن القانون التشريعي الأول للشوجونية — قوانين وتشريعات الحكم (جوسيباي شيكيموكو) — إلا في عام ١٢٣٢، كردٍّ فعل على حرب جوكيو. وعلى الرغم من أنه يوصف عادةً بأنه مجموعة من القوانين العسكرية، فإنه يعكس الكثير من المشكلات المستشرية في نظام كيوتو الحكومي. ويُعَد وصفُه بأنه قانونٌ مبالغةً في تقييم مدى تأثيره على مختلف المجموعات من الناس الذين يُدعَون محاربين. لم يكن مصطلح «قانون» يحمل في طياته المعاني التي يحملها في العصر الحديث؛ على سبيل المثال، ثمة عدد قليل من آليات إنفاذ القواعد في عصور ما قبل الحداثة، ولم تكن ثمة ثقافة قانونية من شأنها أن تملأ الحياة اليومية مثلما هي الحال حاليًّا. لم تتمكن أيٌّ من حكومات عصور ما قبل الحداثة أن تنفِّذ — أو حتى تضع تصورًا بشأن — متابعة وتصنيف حياة الناس وممتلكاتهم، من الميلاد إلى الممات، مثلما تفعل حكومات العصر الحديث. في الغالب، حددت قوانين وتشريعات الحكم توقعات وعقوبات للحكام العسكريين والأوصياء على الأراضي، أي الإدارة العليا والمتوسطة. وتجاهل الكثير من المحاربين في أماكن بعيدة عن كاماكورا هذه القوانين بكل بساطة. ولكن مثَّلت قوانين وتشريعات الحكم سابقةً أولى لنظام محاربين في اليابان يتمكن من إنشاء نموذج للسلوكيات ينطبق على المحاربين، بغضِّ النظر عن المكان والزمان، نموذج ظل قادة المحاربين والمفكرون يدرسونه حتى القرن التاسع عشر، بعد فترة طويلة من انهيار شوجونية كاماكورا.

وكوثيقة قانونية، وحفاظًا على الممارسات التي وضعتها الشوجونية منذ نشأتها، أكدت القوانين على اتباع الأعراف. «يمكن حكام المقاطعات وملاك الأراضي (من غير المحاربين) أن يمارسوا سلطاتهم القضائية المعتادة دون الرجوع إلى سلطات الشوجونية.» في واقع الأمر، قيل لملاك الأراضي هؤلاء إن الشوجونية لن تلبِّي حتى طلبات المعابد أو الأضرحة للحصول على المشورة من الشوجونية.

سعى القانون إلى تقييد السلطة الجديدة التي تحصَّل عليها الخدم والإداريون الجدد بعد حرب جوكيو. فعندما كان يُضبَط أي مفوض متلبسًا باختلاس الضرائب المحصلة أو جباية ضرائب أكثر من المفروضة «يُعزَل من منصبه». وحتى إذا ما ارتكب مساعدوهم جرائم أو «خالفوا القوانين والأعراف»، فسيتحمل المفوضون المسئولية إذا كانوا على علم بتلك الجرائم، وحاولوا التستُّر على نوَّابهم. كذلك الحكام العسكريون الذين يصادرون أي ممتلكات بسبب بعض المخالفات دون تقديم تقرير مناسب «سيُعاقَبون جنائيًّا».

في منتصف القرن الرابع عشر، أُلِّف دليل للمحاكمات تحت عنوان «كتاب لمن يجهل الأمور القانونية» (ساتا ميرينشو)، وحوى هذا الكتاب تعريفات لمصطلحات بسيطة، مثل «المدعي»، ومفاهيم أكثر تعقيدًا، مثل الدعاوى المدنية على اختلافها، والقضايا الجنائية. من بين القضايا المدنية: «القروض في صورة نقود أو حبوب مقابل فائدة؛ بيع حقول الأرز والعبيد والعمال شبه الأحرار؛ اختطاف الخدم». وشملت القضايا الجنائية «التمرد، والهجمات الليلية، والسطو المسلح، والتسلل بغرض السرقة، وقطع الطرق، والقرصنة، والقتل، والحرق، والاعتداء بالضرب، والإصابة بأداة حادة، واختطاف النساء واغتصابهن، ونشر الذعر، وسرقة مقتنيات الناس أثناء فرارهم، وحصاد حقل أرز أو حقل جافٍّ يخص شخصًا آخر».

كيف كان شكل حياة المحاربين في اليابان؟ اعتمد هذا على الشخص الذي يعملون لصالحه، وعلى موقعهم في هذا التسلسل الهرمي المحلي. كانت الشوجونية تتوقع من خدمها أن يؤدوا مهمة حراسة في كيوتو عدة أشهر خلال العام، مقدِّمين تلك الخدمة لحاكم إقليمي، أو ربما العمل في إحدى الولايات متولِّين وظيفة حكومية أو شرطية. كان الرجال يتناوبون على المناصب المختلفة لكي يتعلموا جميع الواجبات التي يجب أن يتعلمها أتباع الشوجونية. أما المحاربون الذين لم يكونوا على صلة مباشرة بالشوجونية، فكانوا يعملون في وظائف مماثلة محليًّا داخل مناطقهم، فكانوا يؤدون العديد من الوظائف لصالح عائلة نبيلة، أو مجمع معابد بوذية، أو عشائر ذات نفوذ في الريف تربطهم بكيوتو أو شوجونية

كاماكورا علاقات واهية، أو لا تربطهم بهم علاقات على الإطلاق. عمل بعض المحاربين لصالح الإمبراطور مباشرةً. ولأن اليابان لم تكن في حالة حرب دائمة، كانت الوظائف في أغلب الأحيان عادية أو بدنية؛ فقد عمل الكثير من المحاربين في الزراعة، شأنهم شأن عامة الشعب.

عانى معظم المحاربين من ظروف اقتصادية صعبة. فكان مسئولو إدارة الأراضي يتقاضَون رواتبهم من الضرائب التي يجمعونها، وغالبًا ما كانوا يستغلون سلطتهم في تحصيل الضرائب لمصالحهم الشخصية. وعلى الصعيد الاقتصادي، عانت العشائر التي تملك أراضي على مدار أجيال بسبب عادة تقسيم الميراث بالتساوي بين الأبناء والبنات، ما أدى إلى تقلُّص حجم ثروة العائلات تدريجيًّا. وكان إنشاء المشاريع العمرانية، ورعاية المعابد البوذية، وشراء التحف الفنية من الصين، والمشاركة في طقوس البلاط، من بين أمثلةٍ كثيرة للنفقات التي استنزفت ثروات النخبة من المحاربين، وأجبرتهم على اقتراض المال من التجار المحليين، وهي مديونية لم تُسدَّد أبدًا. بالإضافة إلى ذلك، لم تتمكن مصادر دخلهم التقليدية، أي المحاصيل الزراعية، من مواكبة النمو السريع للاقتصاد التجاري. ولم تظهر هذه المشكلات فجأة، ولكن غزوات المغول أدت إلى تفاقمها بشكل كبير.

الاجتياح المغولي

في عام ١٢١٥، حقق كوبلاي خان، حفيد جنكيز خان وزعيم المغول، ما لم يتمكن جده من تحقيقه؛ غزو الصين. وانطلاقًا من بكين، بدأ كوبلاي عقودًا من الغزوات محققًا نجاحات متفاوتة. فعلى سبيل المثال، أخضع كوريا، ولكنه فشل في غزو جاوا، ومملكتَي داي فيت وتشامبا في فيتنام، واليابان على الرغم من محاولاته المتكررة. لم يكن تاريخ المحاربين بمعزل عن الأحداث التي تقع في أماكن أخرى من آسيا، وعلى الرغم من أن المغول لم يحققوا أي مكاسب في اليابان، فقد كشفت غزواتهم نقاط ضعف «نظام المحاربين».

وفقًا للرواية التاريخية الشائعة عن الغزوات، هاجمت القوات تحت قيادة المغول، والتي ضمت أعدادًا كبيرة من الصينيين والكوريين، جزيرة كيوشو الجنوبية مرتين. واجه المحاربون اليابانيون، في عام ١٢٧٤، ومجددًا في عام ١٢٨١، قوة أكثر تفوقًا بكثير من حيث عدد القوات وتنظيمها، والتقنيات المستخدمة، بما في ذلك استخدام المتفجرات. أرجع المؤرخون العسكريون الخسائر اليابانية الكبيرة إلى ما يُسمَّى بالأسلوب التقليدي الياباني في القتال؛ إعلان المحارب عن نسبه والانخراط في القتال الفردي. لم يستمر الغزو الأول

سوى يوم واحد فقط قبل أن تهبَّ عاصفة عاتية تعيد المغول إلى البحر. أعدَّ اليابانيون دفاعات على طول خليج هاكاتا، بما في ذلك بناء سور، وتمكنوا من صد هجوم المغول لعدة أشهر قبل أن تهب عاصفة أخرى لتنقذهم. أصبحت العواصف تُعرَف باسم الرياح الإلهية (كاميكازي)، ولم يشتهر هذا المصطلح إلا أثناء الدعاية الحربية في ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته. إبان نهاية الحرب العالمية الثانية، كان الجيش الياباني يأمل أن تتمكن «رياح إلهية» من الطيارين الانتحاريين من صد غزو جديد لجماعة أجنبية أكثر تفوقًا؛ الأمريكيون.

تشير الدراسات الحديثة إلى أن العواصف ربما كانت أسطورة. وعوضًا عن ذلك، زجَّت المؤسسات الدينية بقصة التدخل الإلهي من أجل الحصول على مكافآت مقابل مشاركتهم في هزيمة المغول. يزعم بعض المؤرخين أن العواصف لا يمكن أن تهزم المغول وحدها. لماذا انسحب المغول إذن؟ ربما لم يكن اليابانيون أضعف من المغول، وتمكنوا من هزيمتهم باستخدام فاعليتهم القتالية. أو ربما تمكَّن المغول بالفعل من هزيمة اليابانيين، ولكن كان هدفهم هو اختبار قوة الجيش الياباني فقط، وليس احتلال البلاد بأكملها. كان كوبلاي لا يزال يقاتل الصينيين طوال حقبة سبعينيات القرن الثالث عشر، ثم بدأ يغزو مكانًا آخر خلال حقبة الثمانينيات من القرن نفسه، ومن ثم، لم يكن يملك الوسيلة أو الرغبة في غزو اليابان بأكملها.

عزَّز الدفاع عن كيوشو، والاستعداد للغزو الثالث الذي لم يحدث أبدًا، من وجود عائلة هوجو في جنوب اليابان ووسطها. فقد زاد عدد الحكام العسكريين في تلك المناطق، وكان أغلبهم ينتمون إلى عائلة هوجو أو فروعها. وجندت الشوجونية رجالًا من الأراضي التي كانت خالية من أي وجود للشوجونية قبل غزوات المغول. وبمجرد أن أصبح للشوجونية وجود في الأراضي التي لم تكن مملوكة لأتباعها، لم تتركها مجددًا. امتدت سلطة عائلة هوجو على المعابد والأضرحة الكبرى، التي كانت مقصورة في السابق على شرق اليابان، لتشمل المعابد والأضرحة في غرب اليابان أيضًا.

لم تخلق الغزوات المغولية مشكلات جديدة لنظام المحاربين الحاكم، ولكنها أدت إلى تفاقم المشكلات القديمة. كان الكثير من المحاربين الذين حشدوا رجالهم للدفاع عن كيوشو يأملون في الحصول على مكافآت مقابل جهودهم. فمن دون ضرائب قومية مفروضة أو تقديم دعم اقتصادي كبير من الشوجونية نفسها، تحمَّل أولئك المحاربون عبء جمع المزيد من الضرائب من الأراضي المحيطة بهم. لم تكن عائلة هوجو نفسها تملك إلا القليل من

الأراضي المسيطَر عليها حديثًا لتوزيعها على المحاربين، وكان الذين تلقَّوا بعض المكافآت محاربين من جزيرة كيوشو. أمرت عائلة هوجو عائلات كيوشو بقَصر الميراث على ذريتهم من الذكور فقط، الأمر الذي سلب بناتهم امتيازاتهن الاقتصادية، وامتد ذلك العرف بمرور الزمن ليشمل المحاربين في جميع أنحاء اليابان. وبالتدريج، أصبح الميراث يُعطَى بالكامل إلى الابن الأكبر، الأمر الذي همَّش حتى نسل العائلات الذكور الآخرين.

أصدرت عائلة هوجو أيضًا سلسلة من المحظورات على المحاربين فيما يتعلق ببيع أراضيهم أو إعطائها لغير الأقارب. وأفضت هذه المحظورات إلى «المرسوم القويم» الذي أجبر أي شخص تلقى أرضًا من عائلة محارب — إما كضمان على الديون أو كسلعة مبيعة في صورة هدية — على إعادتها إلى عائلات المحاربين الأصلية. كانت إلغاءات هذه الديون «قويمة»؛ لأن الأراضي لم تكن سلعة تُباع وتُشترى، بل كانت جزءًا لا يتجزأ من إرث عشيرة المحارب. وكان هذا المرسوم غير واضح كحال مراسيم عصور ما قبل الحداثة الأخرى. ففي كثير من الأحيان، كانت مطالبات المستفيدين أنفسهم غير قابلة للتنفيذ، وكان بعض كهنة الأضرحة يعتقدون أن المرسوم ينطبق عليهم أيضًا. ومن ثم، كان فرض وتنفيذ المحظورات مستحيلًا في أغلب الأحيان.

تدهور كاماكورا

عانى الأتباع العاديون في كاماكورا والشوجونية من نزاعات داخلية خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر. فقد بدأ اثنان من أقوى أتباع عائلة هوجو، تايرا يوريتسونا وأداشي ياسوموري، في قتال بعضهم بعضًا بعد وفاة حاكم الشوجونية القوي، هوجو توكيمون (١٢٨٤). وفي عام ١٢٨٥، حاول يوريتسونا اعتقال ياسوموري، الأمر الذي أدى إلى سلسلة من الاغتيالات، وحملات التطهير، وحالات الانتحار بين أنصارهم وأتباعهم حتى قتل يوريتسونا نفسه في عام ١٢٩٣. انتشر تأثير هذه المؤامرات السياسية العنيفة في جميع أنحاء كيوتو، فقد انقسم النبلاء إلى فصيل مستاء من تدخل عائلة هوجو في سياسات البلاط الإمبراطوري، وفصيل آخر يدعم الشوجونية. بدأت عائلات المحاربين الفرعية في الانفصال عن عشائرها الرئيسية عبر الاستجابة لدعوة للدفاع عن كيوشو من تلقاء أنفسهم دون انتظار أوامر زعماء العشائر. وبالتدريج، قلَّت تحالفات عشائر المحاربين مع أقربائهم الذين يعيشون في أماكن تبعد عنهم جغرافيًّا، وزادت تحالفاتهم مع المحاربين المجاورين لهم.

بالتوازي مع الخلافات التي استشرت في طبقات المجتمع العليا، زادت في طبقاته الدنيا أعداد اللصوص والقراصنة والمرتزقة، والغزاة الذين كان يُشار إليهم باسم «عصابات الشر» (أكوتو). ولم تتمكن شوجونية كاماكورا وأتباعها، أو البلاط الإمبراطوري في كيوتو، من السيطرة على احتكار العنف المستشري في أنحاء اليابان. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر، نمت أعداد هذه العصابات من بضع عشرات في الغالب إلى عدة مئات. وبلغت أعدادهم ذروتها خلال أوائل القرن الرابع عشر، وكذلك تعقيد إمكاناتهم؛ فبنى بعضهم حصونًا، أو انضموا إلى قوات المحاربين المحليين، أو عملوا لصالح المعابد المحلية. سلَّحت مجموعات مختلفة من الناس أنفسها لمحاربة اقتصاد القرن الثالث عشر المرتكز على التجارة والسيولة النقدية، وأيضًا للدفاع عن أنفسهم ضد التهديدات من قمة الهرم الاجتماعي وقاعه.

إرث أول نظام حاكم للمحاربين

قربَ نهاية عصر الساموراي في منتصف القرن التاسع عشر، ربط المحاربون وجودهم بإرث يوريتومو. فبالنسبة إليهم، كان يوريتومو هو مؤسس نظام المحاربين الحاكم. ولكن لم يظهر هذا الثناء الكبير على يوريتومو إلا في وقت متأخر من عصر ما قبل الحداثة في تاريخ المحاربين. لم يلقَ يوريتومو احترامًا كبيرًا خلال حياته. فقد قتل يوريتومو ابن عمه (يوشيناكا)، وأخاه غير الشقيق (يوشيتسوني). وعندما أراد يوريتومو مقابلة الراهب الصيني تشينانا كي، الذي أعاد بناء معبد تودايجي في كاماكورا بعد أن احترق في عام ١١٨٠، رفض الراهب مقابلته لأنه كان مشمئزًّا من أساليب يوريتومو العنيفة. ولما أرسل إليه يوريتومو هدايا، رفض تشينانا تسلُّمها، باستثناء سرج حصان ودرع، ثم تبرع بالسرج للمعبد، وأذاب الدرع وأعاد تشكيله في صورة مسامير. كانت المكايد السياسية داخل قيادة الشوجونية منذ أواخر القرن الثاني عشر، وخلال القرن الثالث عشر، تتسم بالعنف. فقد ظل أقرباء يوريتومو أهدافًا للاغتيال، ولم يمت أيٌّ من نسله المباشرين ميتة طبيعية، ولم يستمر نسله.

كانت قصة أول نظام محاربين حاكم في اليابان تتسم بالتغير التدريجي. فقد نشأ بالتوازي مع الأحداث التي وقعت في كيوتو بين النبلاء والأباطرة. ظهرت في كيوتو النماذج الإدارية الحكومية، وغالبًا أعضاء الحكومة أنفسهم، مقاييس الثروة، رعاية المؤسسات الدينية، الأعراف الأدبية، وحتى سياسات الزواج. وسواء ادعى المحاربون أنهم من «أتباع»

ميناموتو، أو غزَوا أراضي أحد النبلاء أو أحد المعابد، أو استغلوا مناصبهم في كاماكورا لسرقة السكان المحليين؛ تطلب الأمر منهم أن يتعاملوا مع مؤسساتٍ وعادات لم يبتكروها.

من جهة أخرى، لم يتسنَّ للنخبة في كيوتو أبدًا السيطرة على سلطة المحاربين. فكان الإمبراطور «يمنح» لقب الشوجون، ولكنه لم يقصد أبدًا سيطرته عليه. لم يُرد يوريتومو أو عائلة هوجو لقب شوجون فحسب، بل كانوا يطالبون به. حاول عدد من أباطرة كيوتو استعادة السلطة من المحاربين، بدأ ذلك مع جو شيراكاوا، الذي قلَّب يوريتومو على شقيقه الأصغر يوشيتسوني، ثم تكرر مع جو توبا الذي لم تستمر حربه ضد عائلة هوجو طويلًا. ونجح إمبراطور ثالث، جو دايجو، في تحدي الشوجونية في عام ١٣٣٣، ولكن حتى آنذاك، لم يتمكن البلاط الإمبراطوري من الحد من طموحات المحاربين. لم يعش النبلاء في كيوتو والمحاربون البارزون في كاماكورا قط في ممالك منفصلة. وبعد وفاة سانيتومو في عام ١٢١٩، أضحى الشوجون يُعيَّن من نبلاء كيوتو، وليس من عائلات المحاربين.

تتحدث الوثائق القانونية التي يعود تاريخها إلى شوجونية كاماكورا عن أهمية العائلة التي لم تشمل، بتعريفها الفضفاض، الأقارب بالدم فحسب، بل أيضًا المحاربين التابعين، والخدم غير المحاربين، والمربيات والمرضعات، والعائلات الفرعية البعيدة جغرافيًّا وزمنيًّا، فمن الممكن أن يكونوا جميعًا إما أوثق الحلفاء وإما أخطر الأعداء. لم ينطبق هذا على العائلات التي تحتل منزلة رفيعة في مجتمع المحاربين فحسب، بل انطبق أيضًا على العشائر الهامشية التي يمكن أن تُهدد رغبتها في الاستمرار والتوسع، أو تقوى عبر العلاقات العسكرية والدينية والأرستقراطية في جميع أنحاء اليابان.

أنشأت الشوجونية في كاماكورا نموذجًا لأنظمة المحاربين الحاكمة التالية، رغم أنه يُعَد ضعيفًا. في عام ١٨٦٢، اشتكى أحد أعضاء حكومة المحاربين من تدخلات النبلاء في كيوتو وأنصارهم، ولاحظ أن المحاربين كانوا مسئولين عن سياسات اليابان منذ نشأة الشوجونية في كاماكورا. وفي نهاية المطاف، استسلم رئيسه، الشوجون الياباني الأخير، للإمبراطور في عام ١٨٦٨، وبعد عام، أُعلنت حكومة عصرية حديثة التشكيل، قائلة: «تغلَّبنا أخيرًا على شرور الحكم السيئ للمحاربين منذ زمن كاماكورا، واستعدنا الحكومة الإمبراطورية.»

الفصل الثالث

الحرب والثقافة

وصف المبشر اليسوعي لويس فرويس في القرن السادس عشر زعيم القراصنة نوشيما موراكامي بأنه «كان شديد البأس لدرجة أن جميع سواحل المملكة، وكذلك المناطق الساحلية في الممالك الأخرى، كانوا يدفعون له جزية سنوية خوفًا من أن يدمرهم». فكانت سفنه «تجوب البحر باستمرار». لم يكن نوشيما يختلف عن غيره من أمراء الحرب في القرن السادس عشر، فلم يكن يعتمد على رعاية من نبلاء كيوتو ليؤمن لنفسه الثراء والسلطة والتأثير. خلال العصور الأولى من تاريخ المحاربين، كانت مراكز القوة في كيوتو وكاماكورا تهيمن هيمنة كبيرة على حياة العديد من المحاربين في جميع أنحاء اليابان، غير أنه خلال الفترة من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر، حدث تحول تدريجي نحو إقامة علاقات إقليمية بلغ ذروته في قرن من الحرب، نتج عنه «تغلُّب الأدنى على الأعلى» (جيكوكوجو).

لم تتوقف الحروب على مدار القرون الثلاثة التي تلت سقوط شوجونية كاماكورا وعائلة هوجو في عام ١٣٣١، الأمر الذي أثَّر بالسلب على العلاقة بين النبلاء والمحاربين، وعلى طبيعة ثروة وسلطة المحاربين. ولكن، على العكس من المتوقع، كان دعم المحاربين ومشاركاتهم في عالم الفنون يبلغ ذروته خلال أكثر الأوقات عنفًا في التاريخ. أحرق أودا نوبوناجا، أحد غزاة القرن السادس عشر، المعابد البوذية وقتل آلافًا من أتباع هذه الديانة، ولكنه درس أيضًا فن النُّو المسرحي، كما مثَّل أجزاء من مسرحية أتسوموري قبل خوض معركة أوكيهازاما.

مشكلة كيوتو

تزامن الصدع الأول في سلطة عائلة هوجو منذ حرب جوكيو (١٢٢١) مع تتويج إمبراطور آخر، جو دايجو، الذي تآمر على عائلة هوجو مثلما فعل جو توبا في عام ١٢٢١. تُوِّج جو دايجو إمبراطورًا مؤقتًا بين وفاة الإمبراطور السابق، أخيه غير الشقيق، واعتلاء الإمبراطور التالي العرش. ولكنه كان راشدًا، على النقيض من هذين الإمبراطورين الآخرين، فلم يكن طفلًا سهل الانقياد، وأحاط نفسه بمستشارين داعمين لطموحاته السياسية. كما أنه لم يرفض التخلي عن العرش فحسب، الأمر الذي اتفق عليه مع الشوجونية والنبلاء، بل عيَّن ابنه الإمبراطور التالي ليضمن استمرار سيطرته على كيوتو. كما جمع حوله عددًا كبيرًا من المناصرين، وبسط سيطرته على جميع المحاربين، وفي عام ١٣٣١، دعا إلى حمل السلاح ضد الشوجونية. سرعان ما أنهت عائلة هوجو تلك العدوة، ونفته خارج البلاد، وصفَّت الكثير من أنصاره. ولكن لم يتخلَّ الجميع عن مسعى جو دايجو. فقد ظل قائد جيوشه، كوسونوكي ماساشيجي، ينظم صفوف المحاربين المتعاطفين مع الإمبراطور الذين لا يتبعون الشوجونية. وعدَهم جو دايجو بألقاب وثروات مثلما فعل يوريتومو قبل ما يزيد على قرن من الزمان. كانت عائلة هوجو منزعجة، ولكنها كانت واثقة من النصر، فأرسلت جيشًا تحت قيادة أشيكاجا تاكاوجي، الزعيم الجديد الذي يبلغ من العمر ٢٨ عامًا لعشيرة أشيكاجا، التي كانت حليفًا قويًّا لعائلة هوجو لفترة طويلة. وبدلًا من أن يقاتل جيش جو دايجو، هاجم مقر الشوجونية في كيوتو. وبالمثل، تمرد حليف آخر لعائلة هوجو، عشيرة نيتًّا، عليها في الشرق. وللمرة الأولى منذ أواخر القرن الثاني عشر، تمكَّن أحد الأباطرة أخيرًا من حكم البلاد دون أن يحتاج إلى مشاركة سلطته مع نظام محاربين حاكم.

ولكن لم تستمر احتفالات جو دايجو طويلًا. فعلى مدار ثلاث سنوات، من عام ١٣٣٣ إلى عام ١٣٣٦، أحكم سيطرته على اختصاصات الشوجونية، وأصبح السلطة الوحيدة التي تمتلك الحق في تعيين المحاربين والمطالبة بالأراضي. ولكن نما تأثير تاكاوجي خلال الفترة نفسها، وفشل جو دايجو في كبح جماحه. جمع تاكاوجي محاربين يدينون بالولاء له، وشق طريقه عنوة حتى كاماكورا، ليقضي على صحوة عائلة هوجو هناك، ثم قاتل المزيد من الأعداء وهو في طريق عودته إلى كيوتو. في الوقت نفسه، اندلعت أعمال عنف في كيوتو. نشر كاتب مجهول شكاوى من الحالة السياسية في كيوتو على ضفاف نهر نيجو، قائلًا: «من الأمور الشائعة في العاصمة في الآونة الأخيرة الغارات الليلية، واللصوص،

والمراسيم الزائفة، والمجرمون، والخيول المنطلقة بسرعات كبيرة (ما يوحي بالاضطراب في مكان ما)، والعراك العشوائي، والرءوس المقطوعة ...»

ومثلما فعل تايرا كيوموري قبل قرون، رفع تاكاوجي خصمه على العرش في كيوتو، ثم بدأ يبني ما سيُعرف لاحقًا باسم شوجونية موروماتشي (١٣٣٦–١٥٧٣)، وسُميت تيمنًا بمقاطعة في كيوتو أصبحت مركزًا لنظامه الحاكم. أنشأ جو دايجو بلاطه على بُعد ٥٠ ميلًا فحسب جنوب كيوتو في يوشينو، حيث مات بهدوء. ظل ورثة الجانبين يقاتلون بعضهم بعضًا حتى عام ١٣٩٢، عندما قُطع نسل الإمبراطور في يوشينو، ولكنه لم يُنسَ؛ ادعى رجلٌ، عند نهاية الحرب العالمية الثانية، أنه سليل البلاط الجنوبي، وطالب بأن يحل محل الأفَّاق الشمالي هيروهيتو.

اعتمدت شوجونية أشيكاجا الجديدة على عائلات المحاربين الإقليمية في حكمها. ففي جزيرة كيوشو جنوب غرب البلاد التي حاول المغول غزوها، كان الحكام العسكريون يحكمون بالأسلوب الذي يتراءى لهم. ولم يختلف الوضع في الشرق حول كاماكورا، حيث اضطُرت عشيرة أشيكاجا إلى تفويض سلطاتها إلى المحاربين الذين أعلنوا ولاءهم لها. وعلى الرغم من أنهم لم ينفصلوا بالكامل عن السلطة الشوجونية، فإن أولئك الحكام اكتسبوا تدريجيًّا حقوقًا لم يتمكن أسلافهم في كاماكورا من اكتسابها؛ جباية الضرائب، وإصدار الأحكام وسَن القوانين دون الرجوع إلى الشوجونية، وجمع الرسوم من المدعين المحليين في مقابل تنفيذ العقوبات. مكَّن هذا المدخولُ الأكبر الحكامَ العسكريين من تجهيز جيوش أكبر من جيوش حكام حقبة كاماكورا. ولكن لم تكن جميع أراضي اليابان تخضع لنفوذ الحكام العسكريين. فقد سيطر زعماء محليون ليسوا خاضعين للإدارة الشوجونية الحكومية أيضًا على أراضٍ. وبما أن الكثير من الحكام العسكريين كانوا يعيشون في كيوتو تاركين إدارة مقاطعاتهم في أيدي أتباع لهم، سعى الزعماء المحليون أيضًا إلى الحصول على ألقاب رسمية من الشوجونية، أو أجبروا الحكام على الاعتراف بسيطرتهم على تلك المناطق. حدث التحول نحو الاهتمامات المحلية تدريجيًّا على مدار القرن الخامس عشر. فبالنسبة إلى رجال على غرار القرصان نوشيما، كانت العلاقات الإقليمية والمصالح ومصادر الثروة أكثر أهمية من العلاقات التي تربطهم بالمركز السياسي في كيوتو. هكذا نشأ أولئك الذين سيُعرفون فيما بعد بأنهم «السادة» (دايميو)، أو أمراء حرب القرن السادس عشر.

أدوات الحرب

قبل فترة طويلة من ظهور الساموراي في الأفلام شاهرين سيوفهم الخفيفة الحادة، أو يندفعون للهجوم في المعارك على صهوات جيادهم المهيبة؛ استمتع المحاربون أنفسهم بأوصاف خيالية لأساليب قتال المحاربين. قرأ المحاربون وغير المحاربين على حدٍّ سواء «قصص الحرب»، واستمعوا إليها، وشاهدوا عروضًا تصوِّرها، وكأن نوعًا من الكتابة وُجد منذ القرن الثالث عشر على أقل تقدير. حذَّر المؤرخون من اعتبار هذه الحكايات تصويرًا دقيقًا للأحداث التاريخية، ولكن حتى كتب التاريخ الدراسية تميل إلى ذكر هذه الأوصاف الأدبية المثيرة للجدل عن حروب الساموراي الأولى. أكثر الأساطير شيوعًا وثباتًا هي الاعتقاد بأن المحاربين كانوا يعلنون أنساب عائلاتهم قبل خوض المعارك. ربما كان لهذه الأسطورة جاذبية سينمائية استثنائية، ولكن لا يوجد أي دليل تاريخي يدعمها، ولم يعد المؤرخون العسكريون يقبلونها بوصفها تقليدًا معمولًا به. تخبرنا إحدى الروايات المعاصرة عن غزو المغول أن محاربين يابانيين حاولوا بالفعل إعلان أنساب عائلاتهم قبل المعركة، ولكن قابلتهم قوات المغول بالضحك والسخرية. ولكن ربما كان هؤلاء المحاربون يحاكون السلوكيات البطولية المذكورة في حكايات الحرب، تمامًا كما يحاكي أفراد المافيا اليابانية (الياكوزا) أسلوب الملبس المُصوَّر في أفلام العصابات اليابانية.

ولكن لم تكن الحرب تتعلق بالفاعلية القتالية. فكان المحاربون يتجاهلون الأوامر الموجهة إليهم، أو حتى يستهدفون حليفًا إذا ما شعروا بالإهانة. وكان المحاربون يلوِّنون ويزيِّنون دروعهم، ليس بغرض إرهاب العدو، بل ليكونوا مرئيين للحشود المتجمهرة لمشاهدة المعركة. في تلك المعارك، لم يكن قتل جندي عادي يلقى تقديرًا يماثل هزيمة محارب من النخبة أو من المشاهير. ربما اشتملت تخطيطات المناوشات الحربية قبل القرن الخامس عشر على بعض التراشق اللفظي، ولكن من المؤكد أن هذا لم يكن هو العرف السائد.

كانت الحروب الأولى تندلع بين جيوش صغيرة مقارنةً بالحروب الكبرى التي اندلعت خلال حقبة الولايات المتحاربة (١٤٧٧–١٥٩٠). بينما كان بعض أتباع الساموراي قادرين على حشد بضع عشرات من الرجال لخوض المعارك، كان الكثير منهم يستطيع حشد بضعة أفراد فقط. كان بمقدور أتباع الساموراي استقطاب رجال محليين ليعملوا مرافقين مؤقتين، كما كان تحالفهم مع أتباع آخرين يخدمون محاربًا أرستقراطيًّا مثل يوريتومو، يسهِّل تجهيز إما جيوش صغيرة مكونة من بضع مئات من المحاربين، وإما

كبيرة مكونة من بضعة آلاف من المحاربين. ووفقًا للتقديرات، بلغ عدد الجنود المشاركين في الحرب الكبرى الأولى، حرب جيمبيه، عدة آلاف، رغم أنه من غير المرجح أن يكون العدد قد وصل إلى ٤٠ ألف جندي، طبقًا للمصادر التاريخية. بسبب المدى الجغرافي الواسع لحرب جيمبيه، ووجود الدفاعات التي غيرت من تضاريس الأراضي، مثل الخنادق؛ تزداد أرجحية مشاركة المدنيين فيها أيضًا.

كان القتال يدور خلال حقبة كاماكورا بين المحاربين على صهوات الخيول ومعهم جنود مشاة، إما كانوا يقاتلون بعضهم بعضًا، وإما كانوا يحاولون إسقاط المحاربين عن ظهور خيولهم. قد يبدو هذا الأسلوب مستبعدًا إذا ما تخيل المرء مدى ضخامة وسرعة الخيول المعاصرة وهي تندفع نحو جيوش الأعداء. حتى السياح اليابانيون أنفسهم ينبهرون بعروض سباقات السرعة التي تصاحبها الرماية من على ظهور الخيول (يابوسامي)، التي تُقام في الأضرحة في أنحاء اليابان. يقف الرماة شامخين فوق رءوس المشاهدين، وخيولهم تندفع بأقصى سرعة من دون أن يمسكوا بألجمتها، بينما يطلقون سهامهم على العديد من الألواح الخشبية المنصوبة أهدافًا. ولكن كانت الحقيقة في عصور ما قبل الحداثة أقل إبهارًا من ذلك. كانت الخيول في اليابان في العصور الوسطى في حجم الخيول القزمة، ومع وجود رجل يرتدي الدروع على صهوتها، لم تكن سريعة أو قادرة على التحمل.

ولكن على مدار فترة كبيرة من التاريخ الياباني قبل الحداثة، كان القوس والسهام، وليس السيف، هو السلاح الرئيسي للمحاربين النخبة. وكانت الرماية من على صهوة الخيول شائعة لدرجة أن عبارة «أسلوب الحصان والقوس» (كيوبا نو ميتشي) كانت تصف الفنون العسكرية بوجه عام. في المعارك الأولى التي كانت تعتمد على أسلوب المناوشات، كان إطلاق السهام على محاربين آخرين يمتطون الخيول، أو انتقاء جنود المشاة لإطلاق السهام عليهم، هو الأسلوب المتبع في خوض المعارك. وكانت عرائض المكافآت وتقارير المعارك تشير إلى الأسلحة الأكثر فتكًا. ودائمًا ما كان يعود الفضل إلى السهام في أكبر عدد من الجرحى والقتلى حتى القرن الرابع عشر. لم يكن من شأن سهم واحد أن يقتل المحاربين، وبالأخص الرجال الأكثر ثراءً القادرين على تحمل تكلفة دروع جيدة. لم تكن الدروع نفسها هي ما يصد الكثير من السهام، بل القماش الشبيه بالبطانية الذي يضعه المحارب خلف درعه، والذي من شأنه أن يجعل استهداف المحارب أمرًا أشد صعوبة، فهو يُخفي، من جانب، معالم جسده، ومن جانب آخر، يمتصُّ بعضًا من اندفاع

السهم. ولكن بسبب الأساليب الطبية البدائية المتبعة في تلك المعارك، كان من شأن سهم طائش، أو إصابة مؤسفة بسهم أُطلقَ في الاتجاه الخاطئ، أن يتسبب في موت بطيء مؤلم، ناتج عن نزف المحارب دمَه بالكامل.

تُعَد السيوف مصدرًا آخر لانبهار الجماهير المعاصرة، فمن المفترض أنها تمثِّل جوهر الساموراي، كما أنها حادة للغاية لدرجة أنها تجرح بمجرد اللمس. ولكن ظل السيف سلاحًا ثانويًّا حتى القرن الرابع عشر، وحتى حينذاك، كان يُستخدم لكسب أفضلية على العدو خلال الاشتباكات عن قرب، أو لإنهاء حياة خصم طُرح أرضًا، أو لقطع رأسه من أجل الحصول على مكافأة في وقت لاحق. أما السيف النموذجي الذي نراه في الثقافة الشعبية، فقد اختُرع لاحقًا. قبل الغزوات المغولية، كانت السيوف ثقيلة، وذات أنصال طويلة، وكانت تُستخدم للهجوم على قوائم الخيول وكأنها ساطور ضخم. وكان اندفاع هذه السيوف القديمة ووزنها يمنحانها قوة ضرب هائلة جعلت حدة أنصالها أمرًا ثانويًّا. كشفت تقارير المعارك الباقية والاكتشافات الأثرية أن الإصابات النموذجية المميتة الناجمة عن السيوف خلال العصور الوسطى كانت عبارة عن جماجم مهشمة، وليست جروحًا دقيقة استهدفت الشرايين الحيوية.

إلى جانب السيف والقوس الشهيرين، شملت أسلحة محاربي اليابان الحِرابَ (وتُسمَّى أيضًا الرماح)، والمَطارد (وهي رماح تنتهي بفئوس)، والنشابية، والدروع، والفئوس الحربية، والمطارق الضخمة، والأسلحة الطويلة التي تشبه المجاريف، وتُعرَف باسم «مخالب الدب»، وحتى الحجارة. كانت النشابية شائعة الاستخدام في الجيوش الصينية، وربما يتوقع المرء أن يجدها في اليابان. كانت موجودة، ولكنها لم تكن شائعة بسبب عيوبها التي شملت معدل إطلاق السهام البطيء، ومدى المقذوفات المحدود. وردَ ذكر لنشابية ضخمة، ربما كانت مثبتة على برج، تُسمَّى «القوس العظيمة» (أويومي) في النصوص القديمة، ولكن لم يُعثر على أي آثار أو حتى رسومات لها.

تبدأ القصة المتعارف عليها لوصول الأسلحة النارية إلى اليابان بسفينة برتغالية جنحت بفعل العواصف إلى جزيرة صغيرة تُسمَّى تانيجاشيما. وفقًا للقصة، في عام ١٥٤٣، أدرك حاكم الجزيرة أهمية مدافع السفينة البرتغالية التي جنحت على شواطئها، فأمر الحرفيين المحليين بتفكيكها ودراستها لإعادة إنتاجها، الأمر الذي أدى إلى نشوء صناعة محلية للأسلحة النارية، في الوقت نفسه الذي شهد تزايد الطلب عليها بسبب الحرب الأهلية التي اجتاحت البلاد آنذاك. ذكر المؤرخون العسكريون في اليابان أن البنادق

العتيقة — البنادق القديمة ذات الفتيل التي تُعبَّأ ذخيرتها الكروية من مقدمتها — دخلت اليابان منذ منتصف القرن الخامس عشر، حيث أتت من أماكن مثل أوكيناوا، وجنوب شرق آسيا، والصين. لم يكن الأوروبيون هم أول من أدخل الأسلحة النارية إلى اليابان، ولكنهم هم من جلب كميات كبيرة من الأسلحة التي ربما كانت ذات جودة أفضل خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. ربما كانت الأسلحة النارية تصنع الفارق خلال المعارك، ولكنها لم تغير من الطبيعة الأساسية للحروب أو تكتيكاتها في اليابان.

كانت أكبر خرافة رُويت عن الأسلحة النارية في اليابان هي أن أفراد الساموراي تخلَّوا عنها في نهاية المطاف لصالح السيف، لأن السيف كان أكثر شرفًا، ويمثِّل روح الساموراي. ولكن هذا ليس صحيحًا. ففي البداية، استمر الناس في استخدام الأسلحة النارية في المعارك القليلة الصغيرة، والانتفاضات التي اندلعت خلال حقبة السلم التالية لحقبة الولايات المتحاربة. كان السادة يمنحونها هدايا، واستخدمها عامة الشعب والمحاربون على حدٍّ سواء في الصيد والترفيه. خلال الفترة من القرن السابع عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر، كانت المدافع المتمركزة في ميناء ناجازاكي، أكبر موانئ اليابان، تضاهي نظيراتها المستخدمة في أوروبا. كذلك، استخدم الساموراي الأسلحة النارية ضد الصينيين المتهمين بالتهريب في ميناء ناجازاكي الجنوبي. وهذا يعني أن المحاربين لم «يتخلَّوا» عن الأسلحة النارية أبدًا، بل ظلوا يستخدمونها. إلا أن فرص استخدامها بدأت تتذبذب بعد حقبة الولايات المتحاربة.

يملك درع الساموراي النموذجي تاريخًا طويلًا، ولكنه تغير بمرور الزمان، شأنه شأن الأسلحة. كانت الدروع خلال حقبة كاماكورا (١١٨٠–١٣٣٣) تتكون من قطع من الخشب المطلي بالورنيش مضمومة معًا، مع بعض الدعامات المعدنية في منطقة الصدر. كانت الدروع تغطي أغلب أجزاء الجسم فيما عدا الوجه، ولكنها لم تكن تحمي الأطراف على الوجه الأمثل. كان هذا النوع من الدروع الكاملة عالي التكلفة، ولم يكن أغلب جنود المشاة يرتدون شيئًا سوى الدروع العادية التي تغطي منطقة الجذع فقط. بدأ استخدام دروع الجنازير، التي تشبه نظيرتها الأوروبية، ولكن بجنازير أصغر، في القرن الرابع عشر فصاعدًا، وكان يُدمج مع نوع أقدم من الدروع المصنوعة من صفائح معدنية. تنوعت أشكال الخوذ وفقًا لرتبة المحارب. فكانت تُصنَع للمحاربين من عدة مواد مثبتة معًا، شملت الحديد والصُّلب، والصفائح المعدنية، والجلد المقوَّى، للجنود العاديين. تغيرت أشكال الدروع بما يعكس تغيرات التكتيكات الحربية، لا سيما خلال القرنين الخامس

عشر والسادس عشر عندما أصبحت الحروب تندلع بين جيوش أكبر بكثير، مكوَّنة من جنود أفضل تنظيمًا، يستخدمون أسلحة على غرار الحراب، والسهام الماطرة، والأسلحة النارية. ثمة دروع ساموراي في حالة جيدة للغاية، معروضة في المتاحف في جميع أنحاء أمريكا الشمالية وأوروبا، ولكن تجدر الإشارة إلى أن معظم هذه القطع تعود إلى الفترة بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، وهي فترة شهدت عددًا قليلًا للغاية من الحروب، ولم يكن أفراد الساموراي يرتدون هذه الدروع إلا في المواكب الاحتفالية، أو يعرضونها في منازلهم باعتبارها تحفًا فنية، ولم تُستخدم فعليًّا في المعارك. كانت ثمة تأثيرات أوروبية تتجلى من حين لآخر في الدروع اليابانية، ومن بين الأمثلة على ذلك الخوذات التي كانت تشبه تلك التي يرتديها الجنود الأوروبيون، ولكنها كانت حالات نادرة الحدوث.

لم يستخدم المحاربون اليابانيون الدروع الخفيفة التي تُحمَل على ذراع واحدة، مثل الدروع الأوروبية. بل كانت الدروع اليابانية في المعتاد بطول الإنسان، ومصنوعة من الخشب. وكانت تحتوي عادةً على حمَّالة حتى يتمكن صفٌّ من الرجال أن يتحركوا ويصفُّوها متجاورةً لإنشاء جدار متحرك. عادةً ما كان المحاربون يلجَئون إلى ارتجال دفاعات من بيئتهم المحيطة؛ الأبواب الخشبية، أو أجزاء من الجدران، أو حُصر الأرضيات التي تُقتلع من المباني أثناء الحروب.

وماذا عن القلاع؟ ثمة مشكلتان قد تسببان خيبة الأمل. أما الأولى، فهي أن القلاع كانت، كما تصورها الأوروبيون، عبارة عن خنادق مائية وأسوار تحيط حصنًا مركزيًّا، وقد شهدت تطورًا متأخرًا إلى حد ما في التاريخ الياباني، وتحديدًا في القرن السادس عشر على أقل تقدير. من المفترض أن بعض القلاع لها منشأ سابق لهذا التاريخ، ولكن أُعيدَ بناؤها مرات عديدة بعد حقبة الولايات المتحاربة. خلال العصور السابقة لذلك، حرب جيمبيه على سبيل المثال، كانت هناك بعض التحصينات، ولكنها لم تكن ضخمة أو دائمة. ربما كان المحاربون الذين يخدمون شوجونية كاماكورا يمتلكون مجمعًا ضخمًا مكونًا من أسوار وعدَّة أبنية على أقصى تقدير. وبما أن الكثير من المحاربين عملوا مديرين وشرطيين وحكام، لم تكن ثمة حاجة ملحَّة لإنشاء أبنية ضخمة. حتى قصر يوريتومو في كاماكورا، الذي كان يضم الكثير من مكاتب الشوجونية الحكومية، لم يعد موجودًا.

في القرن السادس عشر، بدأ اليابانيون يصممون قلاعًا بغرض صد غزو الأعداء وهزيمتهم إذا ما تمكنوا من اختراق الدفاعات الخارجية. وعلى الرغم من اختلافاتها الإنشائية عن القلاع الأوروبية، فإنها تشاركت معها الكثير من السمات؛ الخنادق المائية،

والبوابات القوية الضيقة لمنع العدو عن اجتياحها، والنوافذ الصغيرة التي سمحت للمحاربين بإطلاق السهام أو صب السوائل المغلية على القوات المغيرة. تمثَّل الفارق الأكبر بين القلاع الأوروبية واليابانية في الأسوار. فعلى الرغم من تغير أسلوب بنائها لتناسب الأسلحة النارية بمجرد بدء استخدامها في اليابان، لم تتعرض هذه الأسوار للاقتحام أو الحصار الذي يصاحبه قصف مدفعي مثلما حدث مع مثيلاتها الأوروبية. كانت الزلازل هي التهديد الأكبر لتماسك الأسوار اليابانية. ومن أجل منحها المزيد من الحماية، لم تُبنَ الأسوار بزاوية رأسية قائمة على الأرض باستخدام الأحجار التي تُلصَق معًا بالملاط. فكانت الأسوار اليابانية تُبنى بميل خفيف، وكان البناءون يقطعون الأحجار ويرصُّونها على نحو مثالي بحيث يلائم بعضُها بعضًا دون حاجة لاستخدام الملاط.

على الرغم من وجود الكثير من القلاع في أنحاء اليابان في وقتنا الحالي، فإن دزينة منها فقط هي التي تحتوي على حصون يتخطى عمرها ١٠٠ عام. فنادرًا ما كانت الحصون تُستخدم لأغراض عسكرية؛ استُخدمت في الغالب من أجل فرض السيطرة على الأراضي. على مدار حقبة توكوجاوا (١٦٠٠–١٨٦٨)، دمرت الحرائق الكثير من الحصون وغيرها من الأبنية الخشبية على غرار أبراج المراقبة أو مواقع الحراسة. وبفضل شكل الحصون الجميل، أُضيفت إلى القلاع التي لم تكن تتضمن حصونًا عندما بُنيت. أدرك السياسيون المحليون أن القلاع تمثل مصدر جذب سياحي كبير ورموزًا للفخر الحضاري. عُدلت أغلب قلاع اليابان بعد الحرب العالمية الثانية خلال فترة الازدهار الاقتصادي بعدما وضعت الحرب أوزارها. لم تكن بعض حالات إعادة البناء دقيقة، أو استخدمت كمية مبالغًا فيها من الخرسانة منحت القلاع مظهرًا جذابًا رغم عدم أصالته.

ربما كانت أكثر قلاع اليابان «أصالة» هي قلعة هيميجي المدرجة ضمن مواقع التراث العالمي لمنظمة اليونسكو. نجت قلعة هيميجي من المصير الذي لاقته القلاع الأخرى، التي إما هُدمت بعد ثورة ميجي الإصلاحية (١٨٦٨) وبيعت على أنها خردة، أو دُمرت بفعل كوارث طبيعية، أو قصفتها الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية. على الرغم من ذلك، خضعت قلعة هيميجي لإصلاحات، وانتقدها البعض لأنها أشد بياضًا مما هو مفترض أن تكونه قبل القرن العشرين. ولكن هذا لم يمنع اعتبار قلعة هيميجي القلعة اليابانية النموذجية، وتبع الكثير من القلاع التي أُعيدَ بناؤها نموذج قلعة هيميجي، بغضِّ النظر عن الاختلافات التاريخية بينها.

شكل ٣-١: درع كامل من القرن الثامن عشر يحاكي أسلوب القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وتوضح الصورة مدى تأثر محاربي العصور الأحدث بأسلافهم من العصور الوسطى. عُثر على الكثير من قطع الدروع في حالة ممتازة؛ لأنها لم تكن تُستخدم في المعارك، بل كانت تُعرَض في منازل المحاربين كتحف.

المحاربون أثناء المعارك

على مدار قسم كبير من التاريخ الياباني، كانت المكافآت هي أساس الحصول على خدمات المحاربين. اعتمد نجاح يوريتومو على قدرته على مكافأة حلفائه، وخسرت عائلة هوجو من يدعمونها عندما أخفقت في منح المحاربين الذين قاتلوا ضد المغول مكافآت كافية، وتمكَّن الإمبراطور جو دايجو من شراء ولاء الساموراي لصالحه، بعيدًا عن الجنرال الأخير الذي

شكل ٣-٢: تُعَد قلعة هيميجي، المدرجة ضمن مواقع التراث العالمي لمنظمة اليونسكو، إحدى أكبر وأقدم قلاع اليابان. أُنشئت القلعة في الأساس في القرن الرابع عشر ولكنها لم تكتمل، وأُعيدَ بناؤها بعد أن استولى عليها أمير الحرب تويوتومي هيديوشي في أواخر القرن السادس عشر. ومثلما هي الحال مع الكثير من القلاع اليابانية، استخدمتها القوات المسلحة اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية.

حاول أن يدخل في حرب ضده في عام ١٣٣٣. كيف كان المحاربون يثبتون خدماتهم إذن؟ عبر تقديم التقارير وعرائض المكافآت، وتجميع الأدلة، أي رءوس الأعداء.

كان جمع رءوس الأعداء من الممارسات التي نشأت في الأساس ضمن المهام الشرطية. فقد تضمن العنف الذي مارسه المحاربون في البداية مطاردة المجرمين وقطع رءوسهم، لإثبات أن عقوبة الإعدام قد نُفذت. كانت الرءوس تُجمَع، وتُوسَم، وتُعرَض على الملأ في كيوتو. وخلال الحروب الكبيرة، كان قطع الرءوس يُستخدم بوصفه طريقة تساعد المحاربين على تسجيل إنجازاتهم، ومن ثم الحصول على المال مقابل خدمتهم. كانت الرءوس تُنظَّف عادةً وتُعرَض على لوح خشبي أمام أحد الجنرالات لفحصها. كانت رءوس الأعداء المشهورين تمنح المحاربين المكافآت العليا، ولكن كان تحديد هويات المحاربين ذوي الرتب المتوسطة والدنيا أكثر صعوبة، وكان الأسرى يساعدون في تحديد هويات الرءوس. كان من المعتاد أن تُتجاهل رءوس الجنود العاديين.

كان العيب المتعلق بقطع رءوس الأعداء خلال المعارك بديهيًّا؛ كان من الممكن أن يُقتل المحارب أثناء أخذه الرأس. حل بعض الجنرالات هذه المشكلة عبر إصدار أوامر «قطع الرءوس وإلقائها»، التي تقوم على روايات شهود عيان على عملية قطع الرأس، الأمر الذي جعل جانب جمع الرءوس من العملية غير ضروري. كما لجأ المحاربون إلى خداع النظام عبر البحث في ساحة المعركة عن جرحى لم يموتوا بعد، وقطع رءوس المدنيين، وتزييف الهويات أو تغيير بطاقات الأسماء، والبحث عن رءوس مقطوعة متروكة، وهي أفعال غير لائقة تستوجب السخرية.

لم تعلُ أي مفاهيم للشرف، القائمة على الحفاظ على السمعة، على الرغبة في تحقيق النصر. فلم تكن ثمة قواعد سلوكية مكتوبة، ولم تكن هناك تكتيكات غير مقبولة. شملت تلك التكتيكات الإحراق عمدًا، الذي كان يقتل الجميع دون تمييز، والكمائن، والهجوم الليلي، حيث كان العدو يؤخذ على حين غِرة. كان الخداع، وخاصة الخداع الذكي، يُكسِب المحارب الثناء والتقدير، على غرار ما ورد في سجل عسكري من القرن السادس عشر بعنوان «مرآة كاي العسكرية»:

> أثناء معركة تويشيكوزور، انفصل أحد جنود العدو عن زملائه وكان مسلحًا برمح طويل. عندما طارده إيماي، غيَّر جندي العدو، الذي كان أحد محاربي أمير الحرب ويسوجي كينشن، موقع رمحه، وكان على وشك إسقاط إيماي من على صهوة حصانه. ونظرًا إلى أن جندي العدو كان يسير على قدميه، فقد كانت لديه القدرة على التحرك بحرية، على النقيض من إيماي الذي كان يمتطي صهوة حصانه. خدع إيماي، المحارب الشهير، خصمه بأن ناداه كما لو كان حليفًا له. عندما خفض جندي العدو رمحه محييًا إيماي، بدأ رجال إيماي هجومهم. كان إيماي خبيرًا عسكريًّا على الرغم من أنه لم يكن ماهرًا في استخدام السيف، ولم يكن يعرف الكثير عن الفنون القتالية.

لا يصلنا الكثير من التفاصيل عن كيف تدرب المحاربون معًا في مجموعات خلال حقبة كاماكورا. ولكننا نعرف أن التدريب كان نشاطًا اجتماعيًّا ساعد في تطوير هوية الجماعة إلى حد ما. أثناء حقبة كاماكورا، استغل الرجال الصيد باعتباره فرصةً لتعلم كيفية التنسيق بين أفراد الجماعة. كما حدد المديرون العسكريون للأراضي قطعًا من الأراضي لممارسة الصيد، أو الصقَّارة التي ساعدت المحاربين في تعلم مسح الأراضي. بدأت

الرماية من على ظهور الخيول بين المحاربين في كيوتو في القرن الحادي عشر على أقل تقدير، ولكن عادةً ما ترتبط تكتيكاتها بحقبة كاماكورا حينما كان يوريتومو ينظِّم مسابقات رماية ضخمة في الأضرحة الكبيرة. كان التصويب على الكلاب نشاطًا ترفيهيًّا واجتماعيًّا آخر ساعد المحاربين في الجاهزية العسكرية. كان مدربو الكلاب المحترفون يحتفظون بالكلاب ويطلقونها في مكان مُسوَّر، ويبدأ المحاربون في التصويب عليها من فوق ظهور الخيول بسهام غير قاتلة.

كان التدريب والطقوس يحدثان في أماكن تتبع الديانة البوذية أو ديانة الشينتو، ومن ثم فإن الحرب والدين كانا متداخلَين. كان للمعابد البوذية وأضرحة الشينتو سلطة سياسية وعسكرية واقتصادية. فكانت تمتلك الأراضي، وتجمع الضرائب، وتُقرِض الأموال (بمعدلات فائدة عالية تصل إلى ٣٠٠ بالمائة)، وتُقدِّم الحماية لمختلف روابط التجار، بما في ذلك إنتاج المشروبات الكحولية (الساكي) والأسلحة. إن فكرة وجود «رهبان محاربين» ذوي ياقات بيضاء، مسلَّحين بالسيوف العريضة (ناجيناتا)، مستقاةٌ في الغالب من التاريخ والأدب والثقافة الشائعة. ولكن واصل الرهبان، الذين كانت مسيراتهم المهنية تتضمن خبرات عسكرية، القتالَ لصالح المعابد. كانت المعابد الكبرى تعتمد على مؤيديها الوثنيين ليكونوا بمثابة القوة الداعمة للمؤسسة، وكانوا في بعض الأحيان من المحاربين المتقاعدين. كانوا يساعدون في جمع القروض أو حماية المعابد من اللصوص والقراصنة والمحاربين الذين يغيرون على أراضيها.

كانت المؤسسات الدينية تواجه خصومها بأسلحة خارقة للطبيعة؛ كانت الصلوات والترانيم أقرب إلى إلقاء التعاويذ من كونها ابتهالات ليحابيهم الحظ الحسن. كان الكهنة يتوقعون الحصول على مكافآت مقابل دعواتهم للآلهة وبوذا، كي يرسلوا «الرياح الإلهية» التي كانوا يدَّعون أنها دمرت قوات المغول الغازية. كان المحاربون يكتبون كلمات باللغة السنسكريتية على أسلحتهم ودروعهم لحمايتهم من الأذى. كانت الاستدعاءات وصور البوذية الباطنية أكثر أهمية بالنسبة إلى المحاربين الخارجين إلى الحرب أكثر من تأملات الزن. كما قرءوا تعاويذ، أو تعلموها من محاربين آخرين ورهبان، على غرار تلك التعويذة التي تخبر ملقيها بكيفية تفادي هجوم باستخدام النار: «لكي تتفادى هجومًا من عدو يهاجمك مستخدمًا النار، ولِّ وجهك ناحية الماء، أو انظر نحو السماء، وقُل: «فليتقدس اسم إله المطر والماء»، سبع مرات. ثم أنشد الترنيمة «أون سووي روينوتن سواكا» on, su'u ruinōten sowaka، واسكب الماء على القوس بدايةً من قمتها.»

شكل ٣-٣: تصوِّر لفيفةٌ يدوية من بدايات القرن الرابع عشر أحداثَ المعركة التي دارت في روكوهارا، عندما هاجمت عشيرة مينامونو قاعدة تايرا كيوموري في قصر روكوهارا. خسر مينامونو تلك المعركة، وأُخمد تمرد هييجي (١١٦٠). في تلك الصورة، يظهر جنديان من عشيرة تايرا يهجمان على أحد محاربي مينامونو، ويمسكان به لقطع رأسه.

كان المحاربون يمجِّدون أيضًا الكائنات السماوية المرتبطة بالحرب. شملت تلك الكائنات الكائنة البوذية الإلهية ماريشيتن التي صُورت حاملةً العديد من الأسلحة في أيديها الست، وتمتطي ظهر خنزير بري، وهاتشيمان، إله حرب آخر في البوذية. كانت الآلهة تزور المحاربين في أحلامهم، وكانت في بعض الأحيان تنبئهم بنتائج إيجابية للحرب. رُقِّي بعض المحاربين المهيمنين من قِبَل أتباعهم إلى مرتبة القداسة أو التأليه بعد موتهم.

حقبة من الحرب

شهد القرنان الخامس عشر والسادس عشر مزيجًا مدهشًا من الحروب والثقافة الراقية. فخلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر، عانت عشائر المحاربين الأكثر تأثيرًا، على غرار أشيكاجا، من نزاعات داخلية على الخلافة، تفاقمت إلى استخدام العنف. حتى بعد أن أتت هذه النزاعات على الأخضر واليابس في كيوتو على مدار عقد كامل، شهدت أجزاء اليابان الأخرى نوعًا جديدًا من الحروب يختلف اختلافًا جوهريًّا عن الحروب التي شهدتها سابقًا. فلم تعد المعارك تحدث تحقيقًا لمنطق قنص الأعداء من أجل عقاب المتمردين (حرب جيمبيه)، أو من أجل رفعة الأباطرة (حرب جوكيو)، فكان المحاربون يقاتلون من أجل توسعة رقعة الأراضي التي يسيطرون عليها، أو من أجل الدفاع عنها.

مثلما هي الحال مع الحروب السابقة، اندلعت حرب أونين (١٤٦٧–١٤٧٧) بسبب التوترات الهيكلية على قمة الهرم السياسي. كانت هناك ثلاث من عشائر المحاربين، هوسوكاوا، وهاتاكياما، وشيبا، تتولى مهمات الحكام العسكريين، ولكنها كانت أيضًا تتولى بالتبادل فيما بينها منصبًا جديدًا استُحدث خلال شوجونية موروماتشي، عُرف باسم «نائب الشوجون». بعد وفاة الشوجون الثالث، يوشيميتسو (توفي عام ١٤٠٨)، لم يعد الشوجونات التالون يملكون القدرة أو التأثير للسيطرة على الشوجونية بمفردهم. كما لم تكن هناك أي عائلة مثل عائلة هوجو، على علاقة بالشوجون عبر المصاهرة، تملك القوة الكافية لبسط سيطرتها. ومن ثم، تعاون نائب الشوجون وعائلته مع العشائر الأخرى للحفاظ على استقرار الشوجونية. وكان هذا النظام فعالًا عندما كانت العشائر مترابطة داخليًّا، وكان التعامل فيما بينها جيدًا. وضمنت المنافسة فيما بينها ألا تسيطر إحداها على الشوجونية. ولكن عندما زادت العشائر ضعفًا أو نشأت توترات بين عائلات نواب الشوجون، ضَعُفت الشوجونية. كانت النزاعات التي اندلعت داخل هذه العائلات تتعلق بقضايا حول هوية المسيطر على الشوجونية في أي وقت. علاوةً على ما سبق، بدأ الحكام العسكريون يتحولون تدريجيًّا إلى سادة شبه مستقلين، رغم أن هذا المنصب كان مؤقتًا وذا سلطات محدودة خلال حقبة كاماكورا.

كان من السهل عزل عشيرة أشيكاجا بالكامل من السلطة بعد وفاة آخر قادتها العظماء، الشوجون الثالث يوشيميتسو. حافظ يوشيميتسو على سيطرته على الشوجونية حتى بعد تقاعده عبر ابنه، الشوجون الرابع. كان المحاربون والنبلاء، وحتى أسرة مينج الصينية، يحترمون يوشيميتسو، ولكنهم كانوا يحتقرون ابنه. مات الشوجون الخامس

في سن صغيرة، أما الشوجون السادس، يوشينوري، الذي أظهر قدرة حقيقية على الحكم، فقد اعتبرته الكثير من عائلات المحاربين المهمة طاغية، وكانوا محقِّين؛ فقد قتل الطهاة الذين لم يؤدوا مهامهم على الوجه الأمثل، والبستانيين الذين كسروا فرعًا من شجرة برقوق، بالإضافة إلى ٥٩ نبيلًا، وبعض المحاربين، أو جرَت تصفيتهم، أو فرُّوا بأرواحهم من بطشه. أما الحاكم العسكري أكاماتسو ميتسوهيدي، فقد اغتال يوشينوري بوحشية بعدما عرف أن يوشينوري بصدد مصادرة أرضٍ منه ومنحها لشخص آخر. أقام ميتسوهيدي حفلًا في فيلته على أطراف مدينة كيوتو، ودعا يوشينوري ومحاربين بارزين آخرين إلى المشاركة في حدث ترفيهي يفضِّله المحاربون، وهو مشاهدة فن النُّو المسرحي. اندفعت فجأة خيول عبر الحدائق، خالقةً إلهاءً مكَّن السفاحين من اقتحام الفيلا وقطع رأس يوشينوري. كتب أحد رجال البلاط في تلك الفترة أن يوشينوري «مات مثل كلب».

مات ابن يوشينوري، الشوجون السابع، طفلًا، فانتقل منصب الشوجون إلى أحد أبنائه الآخرين، يوشيماسا سيئ السمعة. على الرغم من أن يوشيماسا كان مثالًا حيًّا على ذروة مشاركة المحاربين في ثقافة النبالة — إذ كان شاعرًا بارعًا — فإنه كان شوجونًا مترددًا لم يكن لينتج عن تأثيره إلا تدمير الشوجونية. وعندما أراد أن يتقاعد، وبما أنه فشل في إنجاب وريث له، طلب من أخيه يوشيمي أن يتولى منصب الشوجون. وخطط لأن يتبنى شقيقه رسميًّا، وكان هذا حلًّا شائعًا بين المحاربين الذين احتاجوا إلى وريث ولم ينجبوا أبناءً من أصلابهم. كان يوشيمي متشككًا، ولديه كل الحق في ذلك؛ ماذا لو أنجبت زوجة يوشيماسا ابنًا فجأةً؟ كما أن يوشيمي كان قد اختار لنفسه بكل سعادة مسيرة مهنية لا علاقة لها بحكم الشوجونية، كحال أبناء النبلاء الآخرين الذين لم يعودوا مؤهلين لرئاسة العائلة؛ وفي حالة يوشيمي، كان يعمل رئيس دير رهبان بوذيين. مُنيت جميع الأطراف المعنية بالحظ السيئ، فبعدما قَبِل يوشيمي عرض أخيه، أنجبت زوجة يوشيماسا ابنًا. اندلع القتال بين أنصار يوشيمي الكُثر وأنصار ابن أخيه الحديث الولادة في كيوتو، مفاقمًا الوضع الهش الذي تحول فيما بعد إلى حرب أونين.

مثَّلت معارك حرب أونين نقطة تحول نحو نوع جديد من القتال. على الرغم من أن بعض المعارك وقعت في الريف، فإن أغلبها وقعت داخل مدينة كيوتو. لم تمثل المعارك الأسلوب القديم القائم على قنص المجرمين والمتمردين، أو الالتحام بين المشاركين في المعركة في ساحة قتال مفتوحة. أثبت أسلوب تكتلات الرجال المسلحين بالرماح أنه مناسب للحروب داخل المدن أكثر من الرجال الذين يمتطون الخيول. كان القتال يحدث عشوائيًّا

في الأفنية والحدائق والشوارع بين رجال لم يكونوا محاربين في الأساس، بل مدنيين جُندوا لزيادة أعداد الجنود في تلك الجيوش الصغيرة. كان الهدف من هذه المعارك هو هزيمة العدو والانتقام في كثير من الأحيان. في الحروب السابقة، كان من لم يقطع رأس خصم من نخبة المحاربين، يُسمَح له بأن يتقاعد في المنفى. ولكن خلال حرب أونين، كان العنف مكثفًا لدرجة أن بعض المحاربين استخدموا جماجم الأعداء المطلية بالورنيش أكوابًا. كانت هذه الحرب طاحنة لدرجة أنه عندما سأل أحد المراسلين الصحفيين الرئيس السابع عشر لعائلة هوسوكاوا، هوسوكاوا موريسادا، والد رئيس وزراء اليابان هوسوكاوا موريهيرو (١٩٩٣-١٩٩٤)، عن إرث عائلته، أجابه موريسادا: «نعم، كانت عائلتنا تمتلك الكثير من الكنوز الثمينة، ولكنها أُحرقت خلال الحرب.» اعتقد المراسل أنه يقصد بكلمة «الحربِ» الحربَ العالمية الثانية، ولكن قال موريسادا موضحًا: «أوه، أعني بكلمة «الحربِ» حربَ أونين.»

لم تتعافَ الشوجونية نفسها بالكامل أبدًا من تلك الحرب، وبدأ المحاربون الذين بقوا في الريف يرسِّخون أقدامهم بين جيرانهم وخصومهم ورؤسائهم الغائبين. بعد دمار كيوتو، بدأ الكثير من سكانها ينزحون منها إلى المدن المحصنة التي كان عددها يتزايد في جميع أنحاء اليابان. وظل الحكام العسكريون، الذين ركزوا طاقاتهم على قواعدهم الإقليمية، يملكون زمام السلطة محليًّا، أما المحاربون الذين لم يكونوا على علاقة وثيقة بأسر المحاربين البارزة، أو لم تربطهم بها أي علاقات، فقاتلوا من أجل امتلاك الأراضي والسيطرة عليها. وصف معاصرون استشهدوا بالتاريخ الصيني تلك الحقبة بأنها فترة «الولايات المتحاربة»، في إشارة إلى الصراعات التي سبقت تأسيس الصين الإمبراطورية مباشرةً. لم تكن المهارة الحربية وحدها كافية؛ فقد احتاج أمراء الحرب إلى احتكار التجارة، وزيادة التبادلات التجارية، وزيادة الدخل، واجتذاب الرجال المثقفين ذوي الأصول النبيلة من كيوتو لسنِّ القوانين التي ساعدتهم في تهدئة الأوضاع في ممالكهم. كما أنهم لم يغضوا الطرف أبدًا عن أي حليف محتمل أثناء جمعهم للمحاربين والمرتزقة والمناصرين من المدنيين ليكونوا في خدمتهم.

لم يكن من الغريب أن يكتب أحد المبشرين اليسوعيين إلى أقرانه في أوروبا مشيرًا إلى أمراء الحرب هؤلاء بوصف «الملوك». لم تكن مقاطعات أمراء الحرب تُعَد ولايات أو ممالك، ولكن كان كل حاكم عسكري يفرض سيطرته على مملكته دون اعتبار للشوجونية، الأمر البعيد كل البعد عن منهج الحكام العسكريين قبل حرب أونين.

كانت عبارة «إطاحة الأدنى بالأعلى» تُستخدم في ذلك الوقت لوصف ظاهرة سيطرة الطموحين المجهولين على مقاطعة، أو اغتصاب جزء من الأراضي لأنفسهم. حتى أمراء الحرب الذين تعود أصولهم إلى عائلات قوية، لم يكن النصر مضمونًا بالنسبة إليهم. كانت عائلة أوتشي، العائلة التي ناصرت أشيكاجا خلال النزاع في البلاطَين الشمالي والجنوبي، واحدة من تلك العشائر البارزة التي ذهبت طي النسيان. سيطرت هذه العائلة على جنوبي اليابان، وحكمت مقاطعتها الساحلية من مدينة حصينة تُسمَّى ياماجوتشي. في هذه المدينة، جمعوا ثروتهم من التجارة مع التجار الكوريين والصينيين القريبين، ولاحقًا، مع التجار الأوروبيين الذين بدءوا يصلون إلى اليابان خلال القرن السادس عشر. في مرحلة ما، أصبحت ياماجوتشي مركزًا اقتصاديًّا حيويًّا للغاية، لدرجة أنها نافست كيوتو نفسها، حتى إن عائلة أوتشي خططت لنقل مقر الإمبراطور الدائم إلى ياماجوتشي. ولكن في نهاية المطاف، أُزيحت عائلة أوتشي عن الحكم بواسطة واحدة من العشائر التابعة لها، عشيرة موري، فانهارت ياماجوتشي ولم تستعد مجدها الآفل مجددًا.

ظلت الشوجونية مصدرًا محتملًا يكتسب منه أمراء الحرب شرعيتهم، مثلما فعل أودا نوبوناجا (١٥٣٤–١٥٨٢). كان نوبوناجا واحدًا من أمراء الحرب الثلاثة الأوائل الذين غزوا مساحات شاسعة من الأراضي، ونجحوا في تهدئة الأوضاع في البلاد. يعكس وصول نوبوناجا إلى السلطة مدى استفادة أمراء الحرب من الاضطرابات. فقد كانت عائلته، عائلة أودا، مجرد محاربين، أتباع ثانويين يخدمون عائلة شيبا، التي كانت فرعًا من عشيرة أشيكاجا. كانت عائلة شيبا تتبادل الأدوار مع عائلتَي هوسوكاوا وهاتاكياما في تولِّي منصب نائب الشوجون، ومثلما حدث مع هذه العائلات، مُنيت عائلة شيبا بالضعف بسبب النزاعات الداخلية في العائلات من النوعية التي أدت إلى حرب أونين، ولم تتمكن من السيطرة على المحاربين في أراضي المقاطعة التي تهيمن عليها. واستطاعت عائلة أودا، التي كانت تؤدي الكثير من المهام نيابة عن عائلة شيبا الغائبة، إزاحة عائلة شيبا من حكم المقاطعة والسيطرة عليها.

ورث نوبوناجا عن والده ألقابه وأراضيه، ولكنه كان مضطرًّا لقضاء سنوات طوال في ضمان سيطرته على عشيرة أودا. وكما هي الحال على مدار تاريخ المحاربين بأكمله، كان أفراد العائلة أهدافًا للنزاع؛ إذ قتل نوبوناجا شقيقه. كما تفاوض مع الرجال المحليين أصحاب النفوذ في المقاطعة، وهي الاستراتيجية التي كانت ضرورية؛ لأن المقاطعة، أواري، كانت في موقع مركزي بالقرب من كيوتو، وكانت مقاطعة زراعية غزيرة الإنتاج. استخدم

شكل ٣-٤: عادةً ما أظهرت اللوحات المحاربين حليقي الوجوه من دون رسم الكثير من ملامح الوجه. يظهر هذا المحارب من عشيرة شيباتا بمظهر غير لائق في تلك اللوحة الأيقونية المتمردة من القرن السادس عشر، التي تمثل حقبةً سمحت فيها الاضطرابات للناس بأن يتجاهلوا المعايير الجمالية.

نوبوناجا مزيجًا من التحالفات السياسية والمهارات الاستراتيجية والتخطيطية، كما استغل قدرته على دمج جنود أعدائه المهزومين في جيشه، في تحقيق النجاح. وفي نهاية المطاف، اجتذب دعمًا من الشوجون أشيكاجا يوشياكي. فقد كان كلا الرجلين بحاجة أحدهما للآخر. كان يوشياكي بحاجة إلى قوة نوبوناجا العسكرية، وكان نوبوناجا يريد الاعتراف بشرعيته من الشوجون، بغضِّ النظر عن مدى ضعف الشوجونية. ولكن لم يقبل نوبوناجا أي ألقاب من الشوجون. فلو قَبِل، لأصبح تابعًا للشوجون، ولَتعقَّدت طموحات نوبوناجا.

ومثلما حدث مع عائلة هوجو وجو توبا في عام ١٢٢١، ومع أشيكاجا تاكاوجي وجو شيراكاوا خلال ثلاثينيات القرن الرابع عشر، كان نوبوناجا مجبرًا على الدفاع عن نفسه ضد مؤسسة حاكمة أكثر منه قِدمًا، وكان عليه أن يستخدم القوة لتحقيق ذلك.

ربما لم يسعَ نوبوناجا لتدمير الأهمية السياسية للشوجون ونظامه الحاكم، ولكن هذا لم يمنع انهيار العلاقات بين الرجلين. سعى يوشياكي للحصول على مساعدة خصوم نوبوناجا، بما في ذلك أمير الحرب القوي تاكيدا شينجين، الذي نجح في غزو مساحات شاسعة من الأراضي، مثلما فعل نوبوناجا. أرسل نوبوناجا بدوره إلى يوشياكي قائمة بشكاواه من تصرفات الشوجون. وفي نهاية المطاف، أعلن الشوجون الحرب على نوبوناجا في عام ١٥٧٣، وعلى الرغم من عروض نوبوناجا لإرساء السلام، نفد صبره على يوشياكي الذي فر من كيوتو ولم يعد إليها أبدًا. هزم نوبوناجا التحالف الذي كوَّنه يوشياكي، وأمر بقطع رءوس أمراء حرب الشوجون الثلاثة الكبار، ثم أمر بدهن رءوسهم بالورنيش وتراب الذهب ليعرضها على قواته.

قضى نوبوناجا على آخر أعدائه، البوذية المؤسسية، على مدار بضع سنوات تالية، فقد قتل عشرات الآلاف من معتنقي ديانة الأرض الطاهرة الحقيقية، بما في ذلك رجال ونساء من العامة. وبذلك، قضى إلى الأبد على البوذية كمؤسسة قادرة على الحكم. وطوال ما يزيد على ٥٠٠ عام، ظلت المعابد الكبرى تتمتع برعاية من الطبقة الأرستقراطية ونخبة المحاربين في كيوتو. وبعد حملة نوبوناجا، لم تعد المعابد قادرة على الاستمرار في السيطرة على الجيوش أو امتلاك الثروات كما كانت في الماضي. في عام ١٥٨٢، بعدما دعم البلاط الإمبراطوري نوبوناجا منذ انتصاره على الشوجون، عرض عليه لقب الشوجون. ولكن قبل أن يتسنى له قبول العرض، هاجمه أحد جنرالاته، أكيتشي ميتسوهيدي، وحاصره هو وابنه في أحد المعابد. كان نوبوناجا ووريثه جريحَين ومهزومَين، فانتحرا بعدما أمرا بأن تُحرق جثتاهما. انتهت مسيرة نوبوناجا المهنية كما بدأت، طبقًا لمبدأ «إطاحة الأدنى بالأعلى» الدائم الذي اتسمت به هذه الفترة.

غزا نوبوناجا نحو ثلث اليابان تقريبًا، ووضع سياسات من أجل زيادة التبادلات التجارية، وكوَّن جيشًا كبيرًا، ولكن، كحال جميع أمراء الحرب، كانت مشكلته تكمن في هوية الشخص الذي سيرث هذا الإرث. كان ابنه الذي ظل على قيد الحياة، نوبوتاكا، بعيدًا عن كيوتو عندما وصله خبر مقتل والده وشقيقه الأكبر. وجَّه أصابع الاتهام بالخيانة إلى ابن عمه، فقد كان أبناء العشيرة الواحدة هم المشتبه بهم المعتادين في عائلات المحاربين

البارزة. ولكنه أُجبر على التنحي، ما فتح المجال أمام أحد جنرالات نوبوناجا — هيديوشي — كي يثأر لمقتل نوبوناجا ويسيطر على قواته.

كان نوبوناجا تجسيدًا لأحد أنواع قصص حقبة الولايات المتحاربة؛ أن تغتصب عائلة تابعة سلطة سادتها. جسَّد هيديوشي نوعًا آخر من القصص، شخص مجهول من أصول دنيا صعد إلى أعلى المراتب. عَمِل بنفسه، وكذلك كُتَّاب السير الذاتية الأوائل، على تحسين صورته على نحو زائف، فكان يُخبر الأجانب بأن شعاعًا من الشمس دخل رحم والدته وهي حامل به، في إشارة إلى قدسيته. بعبارة أخرى، استخدم كلا وجهَي قصة البطل الكلاسيكية؛ رجل عادي ذو بداية متواضعة، وكذلك مولده المقدس الذي سيؤدي به في النهاية إلى عظمة إلهية محتومة. على أي حال، استفاد هيديوشي من المكاسب التي حققها نوبوناجا، وتمكن من تأمين التحالفات مع أمراء الحرب في ربوع اليابان، وانصياعهم له، والهيمنة عليهم. تمكَّن من تحقيق ذلك عبر تشكيل أكبر جيش في العالم في ذلك الوقت، فقد كان قوام الجيش ٢٠٠ ألف جندي، أكبر بكثير من أي جيش أوروبي عاصر تلك الحقبة. كان يملك بمفرده ١٢ بالمائة من مساحة اليابان، بما في ذلك بعضٌ من أكبر مدنها، مثل كيوتو، وكذلك الموانئ الكبرى التي كانت تسيطر على تبادلات تجارية مربحة مع التجار الصينيين والكوريين والأوروبيين.

لا يجدر بنا أن نعزو نجاح هيديوشي إلى قدراته وحدها، فقد كان أمراء الحرب أنفسهم على استعداد لقبول سياساته حتى يتمكنوا من كبح التهديدات داخل مقاطعاتهم. على أي حال، قبل بضعة عقود من توحيد هيديوشي لليابان، انقلبت عائلة موري التابعة على سادتها، عائلة أوتشي. كانت العقود الأخيرة من أواخر القرن السادس عشر، والأعوام الأولى من القرن السابع عشر، فصولًا في قصة منع الانقلابات التي استفاد منها الكثير من أمراء الحرب هؤلاء. على سبيل المثال، كان المحاربون يُنفَون من القرى لمنعهم من إنشاء قواعد محلية قوية مستقلة عن سلطة أمير الحرب. حاول هيديوشي أن ينزع أسلحة القرويين، مدركًا أن هؤلاء المحليين يهدِّدون سطوته على اليابان. كانوا في بعض الأحيان يشكِّلون جماعات مكافئة من المزارعين والتجار والكهنة المقاتلين، وغيرهم من «المدنيين» الذين كانوا يسلحون أنفسهم ويقاتلون بشكل جماعي. كانت كلمة «محارب» لا تزال مصطلحًا غامضًا. فلم يكن ثمة فارق واضح يميز من يجدر به أن يُطلَق عليه لقب محارب ومن لا يستحقه. تجمَّع أناس من جميع الطبقات الاجتماعية مكوِّنين جماعات حمَت أعضاءها من بطش جيوش أمراء الحرب الجرارة. وكان هجوم على أحد أعضائها

يثير ردة فعل لديهم جميعًا، شيء أشبه بحلف شمال أطلنطي ياباني في عصر ما قبل الحداثة. كان قرب الموقع الجغرافي أو حتى اتباع مذهب ديني واحد كافيَين لتبرير الدفاع الجماعي.

رسَّخ هيديوشي سطوته على اليابان في عام ١٥٩٠، ولكن اتسعت طموحاته إلى ما بعد اليابان، لتشمل الصين، وبدأ أكبر حرب في تاريخ العالم في عصر ما قبل الحداثة، حرب إيمجين (١٥٩٢–١٥٩٨). بعدما وحَّد اليابان بفترة قصيرة، أرسل هيديوشي مبعوثين إلى ممثلي الحكومات الأوروبية في آسيا؛ الحاكم الإسباني في الفلبين، والبرتغاليون المستقرون في مستعمرتهم في جوا، إحدى ولايات الهند حاليًّا. جاءت ردودهم مزيجًا من الحيرة وعدم المعرفة بهذا الرجل الذي لم يسمعوا عنه من قبل، ولكن اعتبر هيديوشي ردودهم إقرارًا بعظمته. كان هذا هو مدى ثقة هيديوشي بنفسه. طلب من ملك كوريا أن يمنحه حق المرور عبر أراضي شبه الجزيرة حتى تتمكن جيوشه من غزو الصين. احتجَّ الكوريون على طلبه هذا، وفي عام ١٥٩٢، أمر هيديوشي عددًا من أمراء الحرب، وكان أغلبهم من الجنوب، بأن يرسلوا محاربيهم الساموراي إلى كوريا.

خمن كثيرون سبب اجتياح هيديوشي كوريا. قال البعض إنه كان يريد أن يشغل أمراء الحرب وأفراد الساموراي، تجنبًا لاندلاع ثورة. وعلى الرغم من أنه لا يوجد إجماع على هذا الرأي، فإنه ينطوي على أحد جوانب الحقيقة؛ كان هيديوشي يحب تحريك أمراء الحرب ليظلوا منشغلين، وتظل مواردهم شحيحة. يعتقد البعض الآخر أنه كان يريد التخلص من أمراء الحرب المسيحيين. اعتنق نحو ربع مليون ياباني المسيحية منذ وصول حملات التبشير الكاثوليكية إلى اليابان في النصف الثاني من القرن السادس عشر. كان العدد الأكبر من معتنقي المسيحية يقع في جنوب غرب البلاد، في جزيرة كيوشو، حيث رسَت سفن حملات التبشير للمرة الأولى أثناء ترحالها نحو الشمال على طول الطرق البحرية من جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا (ما جعل اليابانيين يطلقون عليهم اسم «البرابرة الجنوبيين»). كان الكثير من أمراء الحرب الذين أُرسلوا إلى كوريا من معتنقي المسيحية.

رجَحت حرب إيمجين إلى كفة اليابانيين في البداية. فبجيش قوامه ١٥٨ ألف جندي — ضعف عدد جنود أي جيش أوروبي على الأقل — بدأ اليابانيون غزوهم من الجنوب، ووصلوا إلى العاصمة الشمالية في غضون بضعة أسابيع. بالنسبة إلى مملكة تشوسون الكورية، كانت الحرب أشبه بعاصفة عاتية؛ لم تُنظَّم الجيش الكوري جيدًا، وكانت شبه

الجزيرة الكورية تنعم بسلام نسبي طوال قرون، ولكنهم وجدوا أنفسهم فجأة في مواجهة اليابانيين المتمرسين في الحرب. استدعى الملك الكوري راعيه، الإمبراطور الصيني من أسرة مينج الذي أرسل قوة صغيرة. في البداية، لم يكن الإمبراطور يرى أن اليابانيين يشكلون تهديدًا، حتى أُبيدَ الجيش الأول الذي أرسله عن بكرة أبيه. وفي نهاية المطاف، أرسل جيشًا قوامه ١٠٠ ألف جندي تقريبًا. تسبب الدعم الصيني والتفوق البحري الكوري تحت قيادة الأدميرال يي صانسين، الذي عزل القوات المتمركزة في كوريا عن اليابان، في إجبار اليابانيين على الانسحاب. قضى هيديوشي عدة سنوات في مباحثات سلام مع أسرة مينج، ألقى خلالها بعض الجنود اليابانيين أسلحتهم واندمجوا في المجتمعات الكورية، أو انضموا إلى جيش مينج. وأخيرًا، قبل فترة قصيرة من وفاته متأثرًا بمرضه، أعطى هيديوشي أمرًا بالانسحاب الكامل؛ الأمر الذي نفَّذه أمراء الحرب بسعادة غامرة.

دمرت الحرب كوريا التي استغرقت قرونًا حتى تعافت. خلال العصور الحديثة، أصبحت حرب إيمجين هي مصدر التوتر التاريخي الأول بين كوريا واليابان. وفشلت جميع محاولات إنهاء هذا التوتر. فعلى سبيل المثال، يوجد في كيوتو موقع تاريخي قومي يُسمَّى «تل الآذان»، وهي تسمية مضللة إلى حد ما، فقد دُفن فيه ٢٠ ألفًا من أنوف الكوريين. أحضر المحاربون اليابانيون هذه الأنوف معهم إلى اليابان من أجل الحصول على مكافآت مقابلها، عوضًا عن قطع الرءوس. خلال حقبة التسعينيات من القرن العشرين، أنشأ مسئولون من كوريا الجنوبية ومدينة كيوتو حملة لإزالة التل وإرسال محتوياته إلى كوريا الجنوبية لدفنها بصورة لائقة. ولكن رفضت حكومة اليابان المركزية هذا الطلب؛ لأن التل مُصنَّف كأحد الأصول الثقافية القومية.

ظل علماء صينيون يهوِّنون من تأثير الحرب على الصين في ظل حكم أسرة مينج، حتى وقت قريب. ففي نهاية المطاف، لم يتمكن المحاربون اليابانيون من الوصول إلى الصين من الأساس. ولكن أنفق الإمبراطور من أسرة مينج الكثير من الموارد على «الحملة الكورية»، كما تُعرَف في الصين، استنزفت خزائن أسرة مينج. تسبب هذا في إضعاف قدرة الحاكم الصيني على إخماد التمردات الداخلية في الصين وقتال الأعداء شمال البلاد.

عاد أمراء الحرب اليابانيون إلى اليابان ومعهم عبيد كوريون، خاصةً أصحاب الحرف والمفكرين. من بينهم خزَّافون أُجبروا على إنشاء ورش لصناعة الخزف الكوري في اليابان. في واقع الأمر، كان غزو هيديوشي كوريا يُسمَّى أيضًا «حرب الخزف». لماذا قد يحتاج أحد الأسماء العظيمة إلى مفكرين وخزافين؟ ما العلاقة بين الحرب والثقافة؟

شكل ٣-٥: خلال غزو كوريا، كان المحاربون اليابانيون يجمعون آذان وأنوف جنود العدو والمدنيين كتذكارات. كان ما يُسمَّى في الماضي باسم هانازوكا (تل الأنوف)، ميميزوكا (تل الآذان)، رمزًا لغزوات اليابانيين على شبه الجزيرة الكورية خلال عصر ما قبل الحداثة والعصر الحديث، وكان مكرسًا لأرواح الذين جرى تشويههم.

قيم المحاربين

منذ البداية، اعتمد المحاربون النخبة على علاقاتهم بكيوتو التي تطلبت درجةً معقولة من المعرفة الثقافية. ثمة عدد كبير من الشوجونات خلال حقبة كاماكورا تعود أصولهم إلى عائلات نبيلة من دون أي هوية عسكرية من الأساس. كانت الأنظمة العسكرية في كاماكورا ثم في كيوتو، وكذلك الحكومات المحلية الصغيرة، تستقطب المواهب من العائلات النبيلة المتوسطة المرتبة. ومن ثم، لم يكن مفاجئًا أن يشارك المحاربون النخبة المثقفين في الفنون بمختلف أنواعها ويرعَونها؛ بدايةً من جمع الأعمال الفنية والكتابة على الخزف، إلى تمويل المعابد والتماثيل البوذية، والأعمال الفنية الدينية. حتى إن مدينة كاماكورا

امتلكت نظامها الخاص من معابد الزن البوذية الذي كان نسخة طبق الأصل من مثيله في كيوتو.

بالنسبة إلى المحاربين الذين كانوا يطمحون في رتب في البلاط الإمبراطوري، كانت الكتابة شرطًا أساسيًّا للتعامل مع نخبة النبلاء ورجال الدين. ولكن لا يجدر بنا أن ننظر إلى الشعر من منظورنا المعاصر للمصطلح؛ على أنه نشاط ترفيهي مسلٍّ لا يخدم أي غرض سوى التعليق على المجتمع المعاصر. كان الشعر في اليابان فيما قبل الحداثة يُستخدم للتعليق على الأحداث الجارية حينذاك، ولكن الأهم من ذلك، كان يدل على إلمام المرء بالأدب الكلاسيكي الصيني والياباني. كانت البراعة في الكتابة، شكلًا ومضمونًا — كان خط اليد مهمًّا — وسيلةً تُمكِّن النبلاء في كيوتو من الترقي في السلم الوظيفي. تبادل الكاهن جيين الشعر مع يوريتومو، الأمر الذي أدى إلى علاقة أفادت كلًّا منهما؛ كان جيين يحتاج إلى ضمان أحقيته في أرضه، وكان يوريتومو يريد معلومات منه. كما كان الناس يؤلفون الشعر معًا كنشاط اجتماعي، فكانوا يربطون بين القصائد، وكان من الممكن أن يُعرِّض محارب من النخبة نفسه للمهانة على الملأ إذا ما أخفق في كتابة قصيدة بارعة.

مع استقرار المحاربين بشكل دائم في كيوتو خلال حقبة موروماتشي، أصبحوا أكثر مراعاة لحساسية البلاط الإمبراطوري. فكثفوا من تبنِّي الثقافة الأرستقراطية في عائلاتهم، واستخدموا التعاليم الصينية عند وضع قواعد لعشائرهم، وكوَّنوا آدابًا سلوكية موازية للمحاربين حاكت العادات الأرستقراطية. بعبارة أخرى، امتدت جذور الثقافة والهوية الناشئة لدى المحاربين إلى ثقافة النبلاء.

ثمة نص يوضح معنى أن تكون محاربًا جيدًا، وهو رسالة يُزعم أنها كُتبت في أوائل القرن الخامس عشر من قِبَل حاكم عسكري، إيماجاوا ريوشَن، إلى ابنه. تؤكد الرسالة على أهمية التعاليم غير العسكرية، واحترام العشيرة قبل الفرد، وطريقة إدارة العشيرة وممتلكاتها. لم يكن النص سابقة تاريخية، فثمة بعض الموضوعات ظهرت في نصوص محاربين سابقة موجهة إلى طبقة النخبة. تخللت رسالةَ إيماجاوا الأفكارُ البوذية عن احترام الحياة، والتعاليم الكونفوشيوسية عن السلوكيات الصالحة عند التعامل مع الآخرين، الأمر الذي تكرر في الكثير من الكتابات الأولى في شرق آسيا. شمل «قانون المنزل» الذي وضعه إيماجاوا القواعد الآتية:

- إذا لم تكن تعي فنون السلام، فمهاراتك في فنون الحرب لن تحقق لك النجاح في نهاية المطاف.

- تحب التجوال، والصقارة، وصيد الأسماك باستخدام طيور الغاق مستمتعًا بخوض غمار الحياة دون غاية.
- لكي تبني منزلك، هدمت باجودا ومباني أخرى من المعبد التذكاري الذي تركه أسلافك.
- لقد سمحت لنفسك بأن تنسى العطف الذي أظهره لنا سيدنا وأبونا؛ ومن ثم دمرت مبادئ الولاء وطاعة الوالدين.
- تتجاهل آراء الآخرين، كما تتنمر عليهم وتعتمد على قوتك.
- تتميز ببراعة في منافسات شرب الخمر والمُتع والمقامرة، ولكنك تنسى شئون عشيرتنا.
- تتميز ببراعة في الفنون القتالية والحربية، وذاك هو الطريق القويم للمحارب. أول ما يجعل المحارب مميزًا هو قدرته على الإدارة.
- يبدو جليًّا من الكتب الأربعة «من الكونفوشيوسية»، والكتب الخمسة القديمة «من الصين»، والنصوص العسكرية أن مَن يمكنه الدفاع عن أرضه ولكنه بلا تعاليم لن يكون بمقدوره أن يحكم.

لم تكن تلك القواعد تنطبق بالضرورة على المحاربين من الطبقات الدنيا، ولكنها كانت تنطبق على المحاربين النخبة، على غرار إيماجاوا. كانت صفوة مجتمع المحاربين هي وحدها التي يمكنها الحصول على تعليم يمكِّنها من قراءة الكتب الصينية القديمة (في واقع الأمر، من شأن الإلمام بالفلسفة الصينية أن يساعد دارسي تاريخ الساموراي المعاصرين في فهم مُثُل المحاربين). خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، استخدم الحكام العسكريون وأمراء الحرب القواعد المذكورة في خطاب إيماجاوا في إدارة عشائرهم، واستعانوا بها لوضع تعاليم مماثلة. وصل خطاب إيماجاوا إلى ذروة شهرته خلال حقبة توكوجاوا (١٦٠٠–١٨٦٨) التي كانت حقبة يعمها السلام، انحصر خلالها تعليم المحاربين على الإدارة والتعاليم المدنية، وليس على المهارات العسكرية.

ظهر فكر المحاربين أيضًا في تعاليم هوجو سوون، وهو محارب من القرن الخامس عشر دان بالولاء إلى عشيرة إيماجاوا خلال حقبة الولايات المتحاربة. لم يكن على صلة مباشرة بعشيرة هوجو من حقبة كاماكورا (١١٨٥–١٣٣٣)، ولكنه تعمَّد استخدام إضافة اسم العائلة إلى اسمه كي يرث إرثهم القوي، فالمحاربون يتخذون مُثُلهم العليا من الماضي.

انتشرت تعاليمه بين كل المحاربين في الأراضي التي يسيطر عليها، بما في ذلك حكم كالآتي:

- استيقظ في ساعة مبكرة. فإذا استيقظت متأخرًا، فسيهمل خدمك مهامهم، ولن يكونوا ذوي فائدة لك. وستعم الفوضى شئونك العامة والخاصة. وسيتخلى عنك سيدك. فكِّر في هذا الأمر بعناية.
- لا تفكر في أنه يجدر بك أن تمتلك سيوفًا وملابس أنيقة مثل الآخرين. راعِ فقط ألا تبدو رثَّة، هذا كافٍ. سيسخر منك الناس إذا ما اقترضت ما لا تملك، أو بذلت جهدًا كبيرًا للغاية على هذه الأمور.
- خلال بحثك عن أصدقاء جيدين، صادق أولئك الذين يجيدون الكتابة والتعلم بوجه عام، الأصدقاء السيئون الذين يجدر بك تجنبهم هم أولئك الذين يلعبون جو، شوجي (نوعٌ من الشطرنج)، ويعزفون على المزمار أو الشاكوهاتشي (مزمار مصنوع من الخيزران يُنفخ في طرفه). لا عيب في جهلك بمثل هذه الهوايات. إنها مجرد وسائل لتمضية وقت الفراغ. يُحدَّد الرجل الجيد والسيئ بأصدقائه. (اقتباسًا من تعاليم كونفوشيوس): «عندما يسير ثلاثة رجال معًا، فسأنتقي من بينهم معلمين. أختار اتباع الأشياء الصالحة في الرجل الصالح، وأتعلم من الرجل السيئ كيف أحسِّن من نفسي.»
- يجدر بك، ولا شك، أن تتعلم أساليب الثقافة (بَن) والحرب (بو)، إلى جانب الفنون القتالية (أي «القوس والحصان»)، ولا حاجة لكتابة المزيد عن ذلك. منذ الأزل، كانت القاعدة أن الثقافة المدنية تقع عن يسار المرء، والتعاليم العسكرية تقع عن يمينه، وعليه أن يمارس كلتيهما.

كان لدى سوون أيضًا الكثير ليقوله عن كيفية خدمة المرء لسيده: يتعين على المرء أن يُظهِر احترامه لسيده دائمًا، وأن يطيع أوامره بالحرف الواحد ومن دون تأخير، كما يتعين على المرء أن يحافظ على منزله. وكما هي الحال بالنسبة إلى خطاب إيماجاوا، ساوت كتابة سوون بين الفنون المدنية والفنون القتالية من حيث الأهمية.

المحاربون في ثقافة كيوتو

خلال حقبة موروماتشي، بدأ المحاربون أيضًا في اقتحام مجال الفنون في كيوتو، رغم أنه لم يكن من صنعهم؛ مجال جمع الأعمال الفنية، والتذوق الفني، والأداء الفني. زاد تداخل السياسة والفن أكثر مع وجود أشيكاجا في كيوتو. حتى إن أمراء الحرب القليلي الخبرة، على غرار أودا نوبوناجا، لم يتمكنوا من مقاومة إغراءات المكاسب الاجتماعية والسياسية التي ستعود عليهم من جذب النبلاء والأثرياء من العامة نحوهم عبر الفنون.

ما قد نعتقد في عصرنا الحالي أنه ثقافة يابانية «تقليدية»، مثل مسرح النُّو أو حفلات الشاي، شهد توسعًا خلال حقبة الحرب واستفاد من رعاية المحاربين. أصبحت هذه الأنشطة مجالات جديدة من المعرفة، فقد أنشأ الفنانون أنفسهم أنواعًا جديدة من شبكات المعارف عبر التعامل مع النبلاء والرعاة من المحاربين. كان المسرح موجودًا في اليابان منذ أمد بعيد، ولكننا لا نعرف الكثير من التفاصيل عنه إلا بعدما أصبح مجالًا فنيًّا معرفيًّا كُتب عنه وصُنِّف تحت اسم «النُّو» خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. لم تكن ثمة أي نصوص حاولت تحديد معايير المسرح، أو تدريباته، أو فنياته. ظلت الحال على هذا المنوال حتى حصل زيامي، الذي يُعَد مبتكر مسرح النُّو، على رعاية شوجون أشيكاجا الثالث، يوشيميتسو، فبدأ يعقد علاقات مع المفكرين الذين أمدوه بالتعليم والمفردات التي مكَّنته من الارتقاء بالمسرح من مرتبة الترفيه إلى الفن الراقي. كانت مسرحيات النُّو تُعرَض على جمهورها الجديد، وكثيرٌ من عروضها كانت تتحدث عن محاربين أبطال استمُدت قصصهم من قصة الهائيكي الكلاسيكية.

كان للفن دور عملي؛ فقد كان المحاربون يتمكَّنون من دخول الشبكات الاجتماعية المكونة من المدنيين عبر الأنشطة الثقافية. لم يبدأ نوبوناجا ممارسة لعبة الكيماري (يُشار إليها عادةً على أنها كرة ركل بالقدم، ولكنها في الحقيقة أقرب إلى كرة من القماش) إلا بعد أن قضى بعض الوقت في كيوتو مع النبلاء. كان النبلاء، وكذلك شوجونات كاماكورا، يستأجرون مدربي الكيماري لتحسين مهاراتهم في اللعبة، ورغب محاربون آخرون من النخبة في المشاركة. وبالمثل، سمح جمع الأعمال الفنية للمحاربين بالاختلاط مع الأثرياء وتكوين تحالفات مع محاربين آخرين عبر منحهم الهدايا، أو عبر منح المكافآت للتابعين.

كانت حفلات الشاي من بين أنشطة الترفيه الأرستقراطية المميزة التي انتقلت إلى صفوف المحاربين، وتحولت في النهاية إلى إحدى سماتهم المميزة. انطوت حفلات الشاي على نشاطين؛ جمع الأعمال الفنية وتذوقها مع التدريبات الرياضية. بدأت تجمعات الشاي

كمناسبات اجتماعية حيث تُعرَض الأعمال الفنية النادرة، وربما كان هذا يحدث كجزء من مناسبات أخرى تستغرق يومًا كاملًا، مثل كتابة الشعر أو حتى ممارسة الألعاب. ولكنها تحولت تدريجيًّا لتصبح حدثًا اجتماعيًّا حميميًّا يجتمع فيه بضعة رجال من طبقات اجتماعية مختلفة، في غرفة صغيرة متواضعة، حيث يكون التركيز منصبًّا على المُضيف الذي كان يُعد الشاي لضيوفه. في هذا السياق أيضًا، يُعَد نوبوناجا المحارب البارز الأول الذي يشارك في هذه الممارسة، فقد وظف اثنين من خبراء الشاي المعروفين، أحدهما سين نو ريكيو، خبير الشاي الأول، الذي أسهب في الكتابة عن جماليات الشاي، والذي لا تزال تعاليمه تُتَّبع حتى يومنا هذا.

استمد هيديوشي نماذجه الثقافية من نوبوناجا، كحال المحاربين الآخرين. فأبقى على توظيف ريكيو لديه معتمدًا عليه كأحد مساعديه. كانت وظيفة ريكيو لدى هيديوشي أن ينظم تجمعات الشاي، ويعرض الأدوات المتعلقة بالشاي، ويدرس جماليات الشاي التي حددها ريكيو نفسه وحسَّنها. حتى إن هيديوشي نظَّم حدثًا كبيرًا للشاي في مكان مفتوح، ودعا الجميع لحضوره، بغضِّ النظر عن مكاناتهم الاجتماعية. ولكن تعارض عالم الشاي الدائم التقلب مع رغبة المحاربين في إرساء النظام؛ فأولئك الذين لم يحضروا الحدث مُنعوا من المشاركة في تجمعات الشاي العامة المستقبلية. ويمكن المرء أن يتخيل التوتر الذي حدث بين محارب مهيمن يخطط لغزو الصين وخبير الشاي الذي يعمل لديه، والذي كان يُعتبر رمزًا ثقافيًّا.

في إشارة إلى أهميته، أشرف ريكيو على وضع تمثال له على بوابة أحد معابد الزن المهمة. اعتبر هيديوشي هذا الأمر إهانة له، فكان سيمر من تحت قدمَي ريكيو عند دخول المعبد. في عام ١٥٩١، أعطى هيديوشي أمرًا لريكيو أن يقتل نفسه. بعدما كتب قصيدته الأخيرة، وبقر بطنه بسيف قصير، أظهر له أحد المحاربين الحاضرين الرحمة وقطع رأسه. بغضِّ النظر عن السبب الذي دفع هيديوشي لإعدام ريكيو، كان خبير الشاي مثالًا على تحدي سلطة هيديوشي في عالم لا يمتُّ بصلة إلى السياسة أو الحرب، فقد كان الناس يطيعون هيديوشي، ولكنهم يستمعون إلى ريكيو بتوقير.

الفصل الرابع

المحاربون في زمن السلام

احتل الساموراي مكانة بارزة في الدراسات المتخصصة في حقبة توكوجاوا (١٦٠٠–١٨٦٨)، المعروفة أيضًا بحقبة إيدو، أو «العصر الحديث المبكر في اليابان». رغم شهرة تلك الحقبة بأنها شهدت زيادة غير مسبوقة في كتابة المعارف وإنتاجها من قبل عامة الشعب، وتفوق الثقافة الشعبية الحضرية للعامة على الثقافة الراقية التي كانت تتركز في كيوتو، ظل الساموراي محورًا رئيسيًّا في التحليل التاريخي الكلي. بالنسبة إلى بعض أنواع التاريخ، خاصة التاريخ الدبلوماسي والسياسي، يُعَد ذلك منطقيًّا؛ فقد وصل دور الساموراي إلى ذروته خلال حقبة توكوجاوا. كان نوبوناجا قد قضى على دور المؤسسات الدينية كقوة سياسية واقتصادية وعسكرية، على الرغم من أن الدين ساعد، بوجه عام، في إضفاء الشرعية على العمل السياسي والترويج له. وحتى نهاية حقبة توكوجاوا، لم يعد النبلاء والإمبراطور في كيوتو يملكون السلطة التي كانوا يملكونها في الماضي. فكانوا يعتمدون على عطايا الشوجون، وكانوا يرسلون سفراء إلى شوجون توكوجاوا الذي اتخذ مدينة إيدو مقرًّا له (طوكيو حاليًّا). لم يفكر أي إمبراطور في تحدي نظام المحاربين الحاكم خلال حقبة توكوجاوا.

تناول باحثون في التاريخ الاقتصادي، والمؤسسي، والفكري، والديني، والثقافي الدور الذي لعبه الساموراي في الحد من التغيرات التي طرأت على المجتمع الياباني في الحقبة الحديثة المبكرة أو تعزيزها. كما يمكن المرء حتى أن يجزم بأن عصر الساموراي الحقيقي بدأ في حقبة توكوجاوا. وصف بعض المؤرخين تلك الحقبة بأنها عصر مظلم، فمن الشائع أن نظام المراتب الاجتماعية الصارم أبقى العامة في مراتبهم، وحرمهم من المشاركة في عمليات اتخاذ القرارات عند قمة الهرم الاجتماعي، وألزمهم بالأعمال البدنية المضنية عند قاعه.

يرى البعض الآخر أن هذه الحقبة كانت حقبة مزدهرة إلى حد ما، وأن مستويات المعيشة كانت جيدة بوجه عام، مقارنةً بالبلدان الأوروبية في العصر نفسه. وبالمثل، كان يُنظَر إلى الثقافة الشعبية والأدب والفن والمسرح على أنها إما مجالات لمقاومة ضغوط حكم المحاربين، وإما وسائل للهرب منه. في تاريخ شرق آسيا المقارن، تُعَد اليابان إما مثيلة للصين وكوريا، لأنها جميعها خضعت للبقرطة في الوقت نفسه تقريبًا، وإما مختلفة عنهما لأن اليابان كانت تخضع لحكم المحاربين، على النقيض من جارتيها.

كان توكوجاوا إياسو مثالًا على الجيل الأخير من أمراء الحرب الذين عايشوا حياة الحرب؛ فبعد القرن السابع عشر أصبحوا مجرد «سادة». أعطت عشيرة ماتسوديرا — العائلة التي وُلد فيها إياسو — إياسو إلى عشيرة إيماجاوا رهينةً بينما كان طفلًا، في مقابل مساعدتهم في الحرب ضد عشيرة أودا؛ كانت الرهائن والمصاهرة أسلوبين مستخدمين لعقد التحالفات بين أمراء الحرب. ولكنه اختُطف وهو في الطريق وسُلِّم إلى عشيرة أودا التي عاش بين أفرادها عدة سنين. ثم عاد إلى عشيرة إيماجاوا خلال عملية تبادل للرهائن تضمنت أحد أبناء أودا. قد يبدو الأمر وكأنه عاش طفولة قاسية، ولكنه لم يتعرض لمعاملة سيئة؛ فقد تعلَّم جيدًا بين صفوف عشيرة إيماجاوا، وقاد جيوشها، وتزوج من امرأة من عشيرة إيماجاوا.

عاش إياسو بين صفوف عائلة إيماجاوا حتى هزيمتها على يد أودا، ثم عاد بعد ذلك إلى مسقط رأسه وسيطر على عشيرة ماتسوديرا. أصبح بعد ذلك أحد حلفاء نوبوناجا، ثم أحد أتباعه، في نهاية المطاف. كان نوبوناجا يثق في إياسو، وكان محقًّا في ذلك. عندما أُجبر إياسو على الاختيار بين الاستمرار حليفًا لنوبوناجا أو قتل زوجته وابنه بناءً على أوامر من نوبوناجا نفسه (فقد كان يشك في أنهما يتواصلان مع الأعداء سرًّا)، آثر الخيار الثاني. خلال حقبة الولايات المتحاربة، لم يتمكن الولاء من التغلب على الطموح.

عندما استولى هيديوشي على جيوش نوبوناجا، انضم إياسو إلى قواته حتى وفاة هيديوشي. وافق إياسو على مساعدة ابن هيديوشي، هيديوري، في حكمه. ولكنه، في نهاية المطاف، دخل حربًا ضد أمراء الحرب الذين ناصروا هيديوري وانتصر عليهم في معركة سيكيجاهارا الحاسمة عام ١٦٠٠. بعد ذلك، أجبر إياسو الإمبراطور على منحه لقب شوجون في عام ١٦٠٣، ثم انقلب على هيديوري الذي كان مختبئًا في قلعة أوساكا. في النهاية، انتصر إياسو على هيديوري وحلفائه القليلين عبر الهجوم على قلعة أوساكا، وانتهى الحصار، من عام ١٦١٤ إلى عام ١٦١٥، بوفاة هيديوري. دون ريتشارد كوكس،

رئيس شركة الهند الشرقية البريطانية التجارية في اليابان، في يومياته: «يُقال إن تكلفة الاستيلاء على هذه القلعة كانت أرواح ما يزيد على ١٠٠ ألف رجل من الجانبين، ولم يُعثر على جثة أي رجل مهم من جانب الأمير هيديوري ورأسها في مكانها، بل كانت جميع رءوسها مقطوعة ... ولم يُعثر على جثة هيديوري نفسه؛ ومن ثم يعتقد كثيرون أنه فر خفيةً. ولكني لا أعتقد ذلك (١٩ يونيو ١٦١٥).» وكانت شكوكه في محلها؛ فقد قُبض على هيديوري من قِبَل عشيرة توكوجاوا، وقُطع رأسه ورأس ابنه الذي كان في الثامنة من عمره. دمر إياسو ضريح عشيرة تويوتومي منهيًا أي احتمالية لحدوث تمرد، ومستخدمًا الاستراتيجية نفسها التي استخدمها مينامونو مع تايرا كيوموري في أواخر القرن الثاني عشر. مات إياسو لأسباب طبيعية في عام ١٦١٦، بعد فترة قصيرة من الحصار، وكان في الخامسة والسبعين من عمره.

أنشأ توكوجاوا إياسو آخر نظام محاربين حاكم في اليابان، وظل نسله يحكمون كشوجونات دون أن تواجههم أي تحديات تُذكَر من البلاط الإمبراطوري والسادة حتى القرن التاسع عشر. فرضت الشوجونية التزامات على السادة، وتوقعات من الساموراي، جمعتها في عام ١٦١٥ في وثيقة تحت عنوان «قوانين بيوت المحاربين». واصلت بعض من بنود القانون التأكيد على موضوعات ذُكرت ضمن قواعد محاربين سابقين، مثل دراسة الفنون المدنية إلى جانب الفنون العسكرية، والعيش ببساطة بما يتفق مع مكانة المرء في الهرم العسكري، وتجنُّب العبث، مثل شرب الخمر والمقامرة. بالنسبة إلى العامة، كانت الشوجونية تصدر مراسيم دائمة التغير، بل والتناقض في بعض الأحيان، وكانت تلك المراسيم تحدد مختلف الجرائم. كما أنها كانت تملك القرار الأخير فيما يتعلق بالسياسات الخارجية، ولكنها أسندت مهمة العلاقات الدولية إلى السادة ليؤدوها نيابة عنها. كانت السلطة السياسية في اليابان متمركزة في مدينة إيدو، ولكن لم تكن حكومة اليابان مركزية. فلم يكن هناك جيش قومي أو جباية ضرائب قومية. صك السادة المستقرون في مقاطعاتهم عملات، وقوانين تشريعية، ومحاكم منفصلة.

كان للكثير من سمات نظام الساموراي الحاكم الأخير جذور تمتد إلى القرن السادس عشر. كان الفارق الرئيسي بين حقبة توكوجاوا والحقب السالفة هو الدرجة التي وصلت إليها دقة تحديد هذه السمات خلال القرن السابع عشر. خلال حقبة الولايات المتحاربة، كان بالإمكان اعتبار أي شخص اسمًا من الأسماء العظيمة إذا كان يملك ما يكفي من القوة، ولكن مع بداية القرن السابع عشر فصاعدًا، كان يجب أن يُصنَّف المرء رسميًّا

كأحد الأسماء العظيمة. يمكن أن تُنسب صورة الساموراي كمجموعة محددة بصورة صارمة نسبيًّا، ومميزة عن بقية المجتمع الياباني إلى حقبة توكوجاوا. خلال العصور التي سبقت تلك الحقبة، كان مفهوم «المحارب» مطاطًا، فبعض الرجال كانوا يُولَدون ويَنشَئون باعتبارهم محاربين، أو يخدمون باعتبارهم تابعين أو مرافقين مقاتلين، بينما كان آخرون محاربين بدوام جزئي، ويعملون في مهن أخرى في غير أوقات الحرب. خلال حقبة توكوجاوا، كان السادة (دايميو) والشوجونات فقط هم من يمكنهم منح هذه المنزلة.

بدأ هيديوشي عملية نشر السلام في ربوع اليابان، ورثها فيما بعد شوجونات توكوجاوا الأوائل، واكتملت تقريبًا بحلول نهاية القرن السابع عشر. كان قد أصدر مرسومًا يُعرَف باسم «التفتيش عن السيوف» حرَّم على المزارعين حيازة الأسلحة من أي نوع، وأمرهم بأن يسلموا أسلحتهم إلى سلطات المحاربين المحلية كي تُصهَر وتُستخدم في صنع تمثال ضخم لبوذا. ولكن، كما هي الحال في أيٍّ من مجتمعات عصر ما قبل الحداثة، لم تكن التشريعات التي يصدرها الحاكم تُنفَّذ بشكل كامل أو موحَّد. فقد ظل بعضٌ من طبقة النخبة، على غرار المسئولين القرويين أو العامة الذين تمتد أصولهم إلى محاربين، يمتلكون أسلحة سرًّا. كان القرويون يستخدمون البنادق في الصيد، ولكنها كانت تُخزَّن في مكتب رئيس القرية ولا تُعطَى إلا لمن يحمل تصريحًا خطيًّا من السلطة المحلية.

ربما كان أوسع مراسيم هيديوشي نطاقًا هو مسح الأراضي في عموم البلاد الذي استُخدم في تحديد الضرائب بناءً على المحاصيل الزراعية. كان هذا المسح أيضًا بمثابة سجل بدائي. صُنفت القرى، وسكانها، وعدد أفراد الأسرة التي تعيش في كل منزل من منازلها، ويشمل ذلك الخدم، على أنهم من العامة لا من المحاربين؛ الأمر الذي فصل المحاربين عن العامة مكانيًّا واقتصاديًّا. ولكن لم يتميز المحاربون عن العامة ثقافيًّا وسياسيًّا إلا في ظل حكم شوجونية توكوجاوا. لم يعد مسموحًا للمحاربين، بوجه عام، أن يعيشوا في الريف إلا في بضع مقاطعات، حيث يعيش عدد من أفراد الساموراي الذين يعملون في الزراعة كجزء من التزاماتهم العسكرية. فقد أجبرت قوانين الشوجونية الساموراي على الانتقال للعيش في المدن المحصنة التي كانت تُعتبر عواصم للمقاطعات، ما أدى إلى توسع عمراني هائل. أصبحت مدينة إيدو أكبر مدينة في العالم في الحقبة الحديثة المبكرة. تدفق التجار من القرى إلى المدن المحلية مع زيادة عدد السكان في ظل حكم شوجونية توكوجاوا. لا شك في أن العامة كانوا سعداء بمغادرة أفراد الساموراي

لقراهم، ولكن كان المسئولون من أفراد الساموراي يغيرون على الريف بانتظام لتقدير المحاصيل.

سيطرت الشوجونية أيضًا على منطقة ثالثة: الحدود بين اليابان والدول الأوروبية. كانت البعثات التبشيرية الكاثوليكية ترتحل في الغالب في جنوب اليابان حيث يعيش نحو ربع مليون ياباني، وكان بعضهم من المحاربين الذين اعتنقوا المسيحية. على الرغم من أن تحول هؤلاء إلى المسيحية قد يكون نابعًا من إيمان حقيقي، ففي واقع الأمر، كان التجار يتبعون بعثات التبشير أينما ذهبت. في القرن السادس عشر، زاد النشاط التجاري من ثروات أمراء الحرب في الجنوب وساعدهم في جمع أسلحة وذخائر أوروبية. من بين المحاربين المهيمنين الثلاثة، كان أودا نوبوناجا هو من تقبَّل وجود الكاثوليكية فعليًّا في اليابان، وربما كان هدفه هو معاداة خصومه من البوذية المؤسسية وإضعافهم. ولكن كان هيديوشي وإياسو متشككين في الأجانب، وفي معتقداتهم الدينية الشديدة التعصب والتزمُّت، والمشكلات المحتملة التي ربما تصدر عن أمراء الحرب الجنوبيين الذين استضافوهم.

كان منع اعتناق المسيحية الذي أصدره إياسو عام ١٦١٢ موجهًا في الأساس إلى الطبقات العليا. وصحيح أن المرسوم جرَّم اعتناق المسيحية في العموم، لكن تنفيذه استهدف السادة وأفراد الساموراي الذين اعتنقوها. تغير كل هذا في عام ١٦٣٧، عندما استخدم المتمردون في منطقة شيمابارا جنوب غربي البلاد رموزًا كاثوليكية على أعلامهم خلال تمردهم، أي الصلبان. في عموم اليابان، طلبت الشوجونية من الناس أن يلتحقوا بالمعابد البوذية المحلية لكي يثبتوا أنهم ليسوا مسيحيين، وأجبرت السلطات مَن اعتنقوا المسيحية على الارتداد عن دينهم الجديد علانيةً. كذلك منع الشوجون دخول الزوار من البلدان الأجنبية، فيما عدا جيران اليابان والهولنديين، الأمر الذي كان غريبًا، فقد وعدوا بألا يُحضروا أي أشياء أو نصوص لها علاقة بالكاثوليكية إلى اليابان. لم يكن اليابانيون في الخارج يستطيعون العودة إلى اليابان، كما لم يكن اليابانيون داخل اليابان يستطيعون السفر للخارج. أوقفت الشوجونية بناء السفن العابرة للمحيطات، وكان يتعين على جميع السفن الأجنبية أن ترسو في ميناء ناجازاكي في جنوب البلاد بعيدًا عن إيدو. وإلى جانب فرض تحريم اعتناق الكاثوليكية، كانت الشوجونية تريد أيضًا أن تحتكر العلاقات مع البلدان الأجنبية عن طريق الاستحواذ على العلاقات الأكبر ربحيةً مع الأوروبيين، والتي عقد أغلبَها أمراءُ الحرب الجنوبيون في الأساس.

السادة (دايميو)

كانت المشكلة الأولى التي واجهت شوجونات توكوجاوا تتعلق بكيفية منع التحديات من أمراء الحرب أنفسهم. عزلت الشوجونية الكثير من أمراء الحرب من مراكز قوتهم ووضعتهم في أراضٍ لم يألفوها. خلال الخمسين عامًا الأولى من حقبة توكوجاوا، بلغ عدد حالات نقل السادة ٢٨١ حالة على الأقل. سُلب أكثر من ٢٠٠ سيد أراضيهم وألقابهم بالكامل، ورُقِّي نحو ١٧٠ فردًا من أفراد الساموراي إلى رتبة سيد. كما كافأت الشوجونية نحو ٢٠٠ سيد آخر بمزيد من الأراضي. هذا إلى جانب أنها أعدمت الأعداء الذين يشكِّلون مصدرًا للتهديد، وحلَّت المقاطعات التي كانوا يسيطرون عليها، وأعادت توزيع أراضيهم على حلفاء عشيرة توكوجاوا.

كانت عشيرة توكوجاوا هي الرائدة بين العشائر، ولم تنفرد بالسلطة طوال حقبة توكوجاوا. كانت تسيطر على ٦٠ ألف محارب وربع مساحة اليابان تقريبًا، بما في ذلك المناطق المحيطة بالمدن الكبرى على غرار إيدو وكيوتو وأوساكا والميناء الدولي الرسمي الوحيد في ناجازاكي. أمدت هذه الأراضي الشوجونية بالموارد التي كانت تحتاجها لتنفيذ الكثير من العمليات، بما في ذلك دفع أجور الساموراي، وتقديم الدعم للبلاط الإمبراطوري والإمبراطور نفسه في كيوتو. كما موَّلت هذه الأراضي نفسها مسئوليات الشوجونية القومية. عندما اغتال ساموراي متطرف بعض الأوروبيين في القرن التاسع عشر، اضطُرت الشوجونية إلى دفع تعويضات لأسرهم. كان لدى عشيرة توكوجاوا محاربو ساموراي يدينون بالولاء لها. وعمل أغلبهم موظفين حكوميين في الشوجونية. لم يكن شوجونات توكوجاوا يستطيعون اقتحام مقاطعة تحت سيطرة سيد آخر وأخذ الرجال والموارد منها. فقد كان محاربو الساموراي في المقاطعات التي كانت موجودة خلال حقبة توكوجاوا، التي تراوح عددها ما بين ٢٥٠ إلى ٣٠٠ مقاطعة، يدينون بالولاء لعشائر سادتهم المحليين. على الرغم من أن الشوجونية كانت قادرة على إجبار السادة على إمدادهم بعمالة من الساموراي للعمل في مشروعات البنية التحتية، مثل بناء السدود أو الجسور، فإنها لم تكن قادرة على تجاهلهم. وكانت مسئولية السيد أن ينفذ الأوامر. إذا ما احتاجت الشوجونية إلى المزيد من الساموراي بغرض التعامل مع متمردين أو صد غزو أجنبي، كانت تطلب من أكثر السادة ولاءً لها أن يرسل محاربيه من الساموراي. في القرن التاسع عشر، خضعت حدود صلاحيات الشوجونية للاختبار. في بعض الأحيان، كان السادة الذين هم على صلة وثيقة بعشيرة توكوجاوا يلبُّون نداءها بالتحرك لقتال المتمردين، ولكن

عندما كانت عشيرة توكوجاوا في أمسِّ الحاجة للمساعدة، اعترض بعض السادة، الأمر الذي تسبب في نتائج كارثية.

شغل السادة جميع المناصب الاستشارية العليا في الشوجونية، الأمر الذي خلق مجموعة ارتبطت مصائر أفرادها، جزئيًّا، بمصير الشوجونية. ولكن باعتبارهم سادة كانوا يتمتعون باستقلالية نسبية في مقاطعاتهم المستقلة. نظريًّا، لم يكن أي سيد يستطيع امتلاك أكثر من قلعة واحدة، حتى إن إصلاحات هذه القلعة كانت تتطلب موافقة من الشوجونية، تفاديًا لتحول «إصلاح» القلعة إلى توسعة. حتى إن أوثق حلفاء إياسو لم يُعفَوا من هذه القاعدة. عُوقب أحد السادة التابعين لإياسو، والذي قاتل إلى جواره في معركة سيكيجاهارا، بسبب توسعته قلعته؛ صادرت الشوجونية ٩٠ بالمائة من أراضيه، وحكمت عليه بالإقامة الجبرية في منزله.

فيما عدا بعض الاستثناءات، اعتمد الشوجون على السادة في تفسير القواعد طبقًا لما يرَونه مناسبًا، وأن ينفذوها وفقًا للحاجة، وأن يؤدوا دور الوسطاء في علاقات اليابان بجيرانها. لذا، كانت علاقة اليابان بالكوريين في الشرق، ومملكة ريوكيو في الجنوب، وأراضي إيزو في الشمال، تُدار جميعها بواسطة سادة يعيشون بالقرب من هذه البلدان. كان سيد جزيرة تسوشيما الواقعة بين اليابان وكوريا يؤدي دور الدبلوماسي بين البلدين محتكرًا التبادلات التجارية بين كوريا واليابان. أنعمت الشوجونية على عشيرة ماتسوماي التي تعيش في أقاصي شمال اليابان برتبة السادة، لا لسبب سوى دور الوساطة الذي لعبته بين عشيرة توكوجاوا والسكان الأصليين لأراضي إيزو.

ولكن لم يكن للسادة أي سلطة خارج حدود مقاطعاتهم. عندما كان أحد أفراد الساموراي من إحدى المقاطعات يرتكب جريمة في مقاطعة أخرى، كانت حكومة توكوجاوا وحدها هي مَن بيدها إصدار أمر اعتقاله. كذلك، أرادت الشوجونية أن تمنع المقاطعات المتجاورة عن إرسال قوات بعضها إلى أراضي البعض، الأمر الذي قد يكون الخطوة الأولى نحو إنشاء جيش إقليمي يُستخدم في الإطاحة بالشوجونية. كان لهذا المرسوم سلبياته. عندما احتاجت الشوجونية إلى المساعدة في إخماد عصيان مسلح في الجنوب — حدث يُعرَف باسم تمرُّد شيمابارا (١٦٣٧–١٦٣٨) — رفض السادة القريبون من موقع النزاع أن يقدموا المساعدة؛ خشية أن يؤدي هذا الفعل إلى كسر قواعد الشوجونية. وبناءً على ذلك، سمحت الشوجونية لقوات أي مقاطعة أن تعبر حدود أي مقاطعة أخرى بغرض حماية السواحل من الغزو أو إخماد عصيان مسلَّح إذا كانت هذه المقاطعة بحاجة إلى المساعدة.

وللحيلولة دون حدوث تمردات، أرادت الشوجونية أيضًا أن تقضي على العادة الأزلية لاستخدام المصاهرة في تكوين التحالفات الاستراتيجية. تشرح المادة الثامنة من «قوانين عائلات المحاربين» الآتي: «الزواج هو الاتحاد الذي يرمز إلى التناغم بين الين واليانج، ولا يمكن دخوله باستخفاف. يقول آي تشينج الصيني أو «كتاب التغيرات»: «لا يجب عقد الزواج من أجل خلق الاضطرابات. أشبع شوق الذكر والأنثى أحدهما للآخر ... إن إقامة تحالف فئوي عن طريق الزواج هو أساس الخيانة.»» ومن ثم، كان يجب الحصول على موافقة نظام توكوجاوا قبل عقد جميع زيجات السادة.

في بداية حقبة توكوجاوا، كان الشوجونات يفرضون القواعد بصرامة تامة. ومن أجل الحفاظ على استقرار المملكة، كان من المتوقع أن من يصبح سيد العشيرة التالي هو الابن البكر للسيد السابق، بغضِّ النظر عن مدى كفاءته. وإذا لم يعلن سيدٌ وريثًا له قبل أن يموت، وإذا لم يوافق الشوجون على الوريث، فقد تُحَل سلالة العائلة بالكامل، وتُصادَر المقاطعة. ومن ثم، يصبح أفراد الساموراي التابعون لهذه المقاطعات «ساموراي من دون سيد» (رونين)، وكان عليهم أن يرتحلوا ليجدوا من يوظفهم، وكانوا عادةً ما ينتهي بهم المطاف في مدينة إيدو. أدت الشكاوى من بعض السادة، وكذلك تفاقم المشكلة المتعلقة بالمتاعب التي يسببها الساموراي من دون سيد في مدينة إيدو، إلى التخفيف من تلك القواعد الصارمة بدايةً من النصف الثاني من القرن السابع عشر. ومن ثم، ولأن توريث الابن البكر لسيد العشيرة ظل هو القاعدة المتبعة، أصبح السادة يؤجلون الإعلان عن مولد أبنائهم، أو يكذبون فيما يتعلق بترتيب مولد العديد من أبنائهم من أجل اختيار الوريث المناسب، أو حتى كانوا يؤجلون الإعلان عن وفاة سيد العشيرة حتى يختار مستشاروها خليفة مناسبًا.

في ظل سياسة «الحضور المتناوب» (سانكين كوتاي)، فرضت الشوجونية على السادة الارتحال بين مقاطعاتهم الأصلية ومدينة إيدو مرةً كل عامين. بدأت هذه الممارسة كتقدير عسكري لا فرض. على أي حال، منذ القرن السابع عشر على أقل تقدير، أصبح المحاربون يقضون وقتًا بعيدًا عن منازلهم يؤدون مهام الحراسة أو غيرها من الخدمات العسكرية في كيوتو أو كاماكورا. خلال القرن السابع عشر، كان ذهاب أحد السادة إلى مدينة إيدو من أجل خدمة الشوجونية والاجتماع مع توكوجاوا إياسو يُعَد أحد مظاهر كونه حليفًا موثوقًا. ولكن بحلول حقبة الأربعينيات من القرن السابع عشر، أصبحت ممارسة الحضور المتناوب بين إيدو والمقاطعة الأصلية قاعدةً مفروضة على جميع السادة.

كانت ممارسة الحضور المتناوب من الممارسات الراسخة في عادات ما قبل حقبة توكوجاوا فيما يتعلق بتبادل الأسرى. كانت زوجات السادة وأبناؤهم يعيشون بشكل دائم في إيدو لقمع أي محاولة للتمرد. كانت الزوجات والأبناء يتحركون بحرية نسبية داخل ربوع المدينة، ولكن كان من المحظور على الزوجات بوجه عام مغادرة المدينة إلا من أجل الحج إلى الأماكن الدينية في ضواحي إيدو. في واقع الأمر، كان المفتشون الذين يعملون عند نقاط التفتيش على طول الطرق السريعة الرئيسية الخمس التي تربط مدينة إيدو ببقية اليابان، يراقبون زوجات الساموراي عن كثب طوال الوقت. قد يعني توجه زوجة أحد أفراد الساموراي إلى خارج مدينة إيدو بداية تمرد، فقد كان السادة يرسلون نساءهم إلى مناطق آمنة. وللسبب نفسه، كان المفتشون يفتشون المسافرين الداخلين إلى إيدو بحثًا عن أي أسلحة. كان بمقدور الورثة السفر إلى مقاطعاتهم الأصلية، ولكن لم يكن يجب عليهم أن يزوروها خلال وجود آبائهم في المقاطعة، منعًا لوقوع تمرد أيضًا. كان السادة يتوقعون من الورثة المراهقين أن يزوروا الأماكن التي سيحكمونها ذات يوم. ولكن ما الذي قد يجذب هؤلاء المراهقين للعيش في مقاطعة ريفية صغيرة؟ فقد نشَئوا في عاصمة اليابان السياسية والاقتصادية والترفيهية. وبَّخ مستشار إحدى العشائر وريثَها، الذي ظل يتحجج بالمرض مرةً تلو الأخرى — المبرر الشائع للتملص من المهام — ورفض زيارة مقاطعته لأعوام عدة: «أغلب ورثة السادة الذين في مثل رتبتك زاروا مقاطعاتهم بالفعل ... قد يؤدي هذا إلى صدور شائعات بأن مرضك عضال، أو أن ثمة خلافًا بينك وبين السيد. وربما يتساءل الناس أيضًا عما إذا كنت تؤجل رحلتك إلى توسا لأنك تفتقر إلى القدرة على الحكم.»

بالإضافة إلى مراقبة أسر السادة عن كثب، استنزف نظام الحضور المتناوب السادة اقتصاديًّا. فعلى الرغم من عدم فرض أي ضرائب قومية على السادة، كانت الشوجونية تتبع طرقًا أخرى للحصول على الدعم الاقتصادي من السادة. كان السادة يمدون الشوجونية بالأموال والعمالة، والمواد اللازمة لصيانة قلعة توكوجاوا الهائلة في إيدو، وقلاع توكوجاوا الأخرى التي توجد في مدن أخرى، بما في ذلك كيوتو. كان يتعين على السادة أن يواصلوا العيش في مجمعات مُسوَّرة في إيدو تحتوي على منزل لإقامة الأسرة، ومهاجع للخدم والحرس الذين يعملون بدوام كامل، وثكنات لأفراد الساموراي الذين يعيشون في إيدو، وإسطبلات، ومناطق للتدريب، بل وحتى حدائق. عندما كان السادة يتنقلون جيئة وذهابًا من إيدو مرةً كل عامين، كانوا يُحضرون معهم حاشيةً من أفراد الساموراي تتناسب مع حجم المقاطعة، بالإضافة إلى طاقم دعم ضخم. كانت المقاطعات الصغيرة تجلب عدة

مئات من الساموراي فقط، أما المقاطعات الأكبر فكانت تُرسل عدة آلاف. شكَّلت مجمعات إيدو ونظام الحضور المتناوب معًا نسبةً تتراوح ما بين ٥٠ إلى ٧٥ بالمائة من ميزانية المقاطعة السنوية.

نسقت الشوجونية الرحلات بحيث لا يخدم سادة المقاطعات المتجاورة معًا في إيدو في الوقت نفسه، ربما من أجل منع حدوث المشاحنات المحتملة بين الجيران داخل إيدو، أو لضمان وجود السادة في مناطقهم المحددة طوال الوقت، تحسبًا لوقوع ثورات أو هجوم أجنبي. بالنسبة إلى سادة المقاطعات الأبعد، كانت الرحلة تستغرق عدة أشهر، وكان من المفترض أن تتحمل العشيرة تكلفة الطعام والإقامة في النُّزُل الباهظة المعترَف بها رسميًّا على طول الطرق السريعة. كما أن الطقس لم يكن مواتيًا على نحو دائم. كان السفر جيئة وذهابًا من إيدو مرةً كل عامين عملية طويلة، ومرهقة، ومكلفة. كان السادة سعداء بترك نظام الحضور المتناوب عندما ضعفت الشوجونية وانهارت في منتصف القرن التاسع عشر.

ولكن حتى أشد القوانين صرامةً يمكن التغاضي عنها أو التحايل عليها؛ لأن جميع مستشاري الشوجونية البارزين كانوا هم أنفسهم سادة، ومن ثم كانوا متعاطفين مع أعباء السادة. كان أي سيد منشغل بإصلاح أحوال مقاطعته المالية أو يتعامل مع مشكلات سياسية داخلية معقدة قد يعتذر عن الحضور المتناوب بأن يدعي «المرض»، وهو العذر الجاهز لأي مسئول حكومي من الساموراي يبحث جاهدًا عن طريقة يعبِّر بها عن اعتراضه على مهمة ما أو يريد تجاوزها. وكان أي سيد تُفرَض عليه المشاركة في مشروع بنية تحتية ضخم، مثل بناء السدود، قد يحصل أيضًا على إعفاء مؤقت من نظام الحضور المتناوب. مع بداية حقبة توكوجاوا، كانت الشوجونية تتوقع من السادة أن يسهموا في صيانة قلعة إيدو، ولكن في انقلاب عجيب للأدوار، لم تجرِ صيانة القلعة بينما كانت الشوجونية في بعض الأحيان تُقرِض السادة المال من أجل صيانة قلاعهم. كانت الشوجونية تراقب السادة عن كثب خلال القرن السابع عشر، ولكن في نهاية المطاف، أصبحت تلك المراقبة عملية صورية، ولا يترتب عليها سوى عواقب طفيفة. وطالما حافظ السيد على مظهر انصياعه لقوانين الشوجونية بشكل تام، كانت ثمة طرق معترف بها للتحايل على التزامات السيد.

كان أخطر أمراء الحرب متمركزين بعيدًا عن مدينة إيدو جغرافيًّا. كان عدد أقل قليلًا من ١٢ من بين الـ ١٠٠ مقاطعة «الخارجية» (توزاما) أو نحوها، تمثِّل بعضًا

من أكبر الإقطاعيات في اليابان، بخلاف تلك المملوكة لعشيرة توكوجاوا نفسها. صُنف الكثير من سادة المقاطعات الخارجية بهذا التصنيف؛ لأنهم لم يكونوا من أتباع إياسو قبل القرن السابع عشر. حصل آخرون على ألقاب السادة الخارجيين، وأُرسلوا بعيدًا نحو الجنوب للتضييق على السادة مصدر التهديد المحتمل. من الناحية السياسية، لم يكن سادة المقاطعات الخارجية هؤلاء يشاركون في اتخاذ القرارات في الشوجونية، ولكنهم كانوا يملكون نفوذًا، من الناحية الاقتصادية، على المناطق المحيطة بهم، خاصة السادة المتمركزين في الجنوب الغربي. كان بعضهم يمتلكون سلطة واسعة، مثل عشيرة شيمازو في مقاطعة ساتسوما التي لم يتمكن توكوجاوا إياسو نفسه من السيطرة عليها في بداية القرن السابع عشر كما فعل مع السادة الأكثر ضعفًا. على الرغم من تفوق عشيرة توكوجاوا، فإن هذا لم ينفِ حاجتها إلى التفاوض على السلطات مع أمراء الحرب على غرار شيمازو من أجل تدعيم سلطتها القومية. كانت أقدم وأكبر العشائر الخارجية نظراء فيما مضى لعشيرة توكوجاوا نفسها، ولم يكونوا تابعين لها، وكان سعيهم للإمساك بزمام السلطة مستقلًّا عن توكوجاوا. على الرغم من أن حقبة توكوجاوا كانت حقبة سلام نسبي، فإنها لم تخلُ من توترات. فلمرةٍ واحدة كل عام في مقاطعة ساتسوما، كان الساموراي يرتدون دروعهم الكاملة ويستعيدون ذكرى هزيمة أسلافهم في معركة سيكيجاهارا. كانت أمهات المحاربين في مقاطعة تشوشو يأمرن أبناءهن بأن يناموا موجِّهين أقدامهم نحو إيدو، في إشارة مهينة إلى توكوجاوا. بالنسبة إلى الساموراي خلال حقبة توكوجاوا، أصبح دعم عشيرة توكوجاوا أو معارضتها جزءًا من هويتهم.

خدم السادة «التابعون» (فوداي) توكوجاوا إياسو قبل القرن السابع عشر. كان نحو نصف إجمالي عدد السادة من السادة التابعين، وتراوح عددهم ما بين ما يزيد قليلًا على ١٠٠، وصولًا إلى نحو ١٣٠ في منتصف القرن التاسع عشر. بدأ بعضٌ من أقدم السادة التابعين حياتهم كساموراي تابعين لإياسو، ولم يُعَدوا سادةً خلال القرن السادس عشر. مع توسع عشيرة توكوجاوا والشوجونية، زادت أيضًا أعداد السادة التابعين. على الرغم من أن أيًّا من مقاطعاتهم لم تكن كبيرة في حجم أكبر المقاطعات الخارجية، فقد تولَّوا جميع المناصب المهمة داخل الشوجونية. من الناحية النظرية، كانت الشوجونية تتوقع منهم أن يخدموها عندما تحتاج إليهم، وأن ترتبط مصائرهم بمصير الشوجونية. ولكنهم كانوا يُعَدون أيضًا خصومًا محتملين. صادر إياسو أراضي العديد من السادة التابعين الأقوياء لأسباب واهية، بل وأقدمَ حتى على إنهاء سلالات عشائر كاملة. ولكن بحلول

نهاية حقبة توكوجاوا، أصبح لقب «تابع» رمزيًّا. فكان يمنح السيد امتياز تولِّي المناصب في الشوجونية، ولكنه لم يضمن له الحصول على أي معاملة خاصة. رفض الكثير من هؤلاء السادة مساعدة الشوجونية عندما هاجمت خصومها في منتصف ستينيات القرن التاسع عشر.

كانت ثمة مجموعة أصغر من السادة «المنتسبين» (شمبان)، لم يزد عددهم على حوالي ٢٠ على الإطلاق، وكانت تربطهم صلات قرابة مع عشيرة توكوجاوا نفسها. كان أكثر أصحاب القرار موثوقية يأتون من هذه العائلات، فقد كان من المفترض أنهم الأكثر إخلاصًا لعشيرة توكوجاوا والشوجونية. كانت مقاطعاتهم توجد في أماكن قريبة من مدينة إيدو بما يكفي لحمايتها، ولكنها لم تكن قريبة للغاية؛ فالحلفاء والأقارب يظلون مصدرًا للتهديد، حتى في أوقات السلم. لم يكن بعضهم يملك إقطاعيات. كانت ثمة عشيرة واحدة، ميتو، هي التي أُعفيت من نظام الحضور المتناوب، وكانت تقيم إقامة دائمة في مدينة إيدو. من بين هؤلاء السادة المنتسبين، استخدم من كان يُطلَق عليهم المنازل الثلاثة — الفروع الثلاثة الرئيسية لعشيرة توكوجاوا — لقب توكوجاوا، وأمدوا الشوجونية بورثةٍ للشوجون عندما لم يكن يوجد من هو على استعداد للحكم ضمن عشيرة توكوجاوا نفسها.

دورة حياة الساموراي

فيما عدا بعض الاستثناءات، كان الميلاد هو المدخل الوحيد إلى فئة المحاربين. كانت بنات الساموراي يتعلمن كيفية رعاية أزواجهن المستقبليين وأسرهم، بينما تعلم أبناء الساموراي ما تعنيه خدمة المقاطعة، وسيدها، وأسرته. نشأ أطفال الساموراي في منازل يعمل بها خدم من العوام، حتى وإن كانت أسرهم بسيطة الحال. وكانت الأسر تضغط نفسها من أجل الحفاظ على مظهرها، حتى وإن لم تكن قادرة على تحمل تكلفته. كان تنظيم الأسرة عبر الإجهاض أو قتل الأطفال خيارًا متاحًا أمام أفراد الساموراي والعامة على حد سواء. وأدت المشكلات الصحية إلى تفاقم الأعباء المالية التي تُثقِل كاهل الأسرة. كان الأطفال من كلتا الطبقتين الاجتماعيتين عرضةً للأمراض نفسها، على غرار الجدري، الذي قد يكون قاتلًا. كان أطفال الساموراي، خاصة أطفال عائلات النخبة، عرضةً لخطرٍ واحدٍ على الأقل لا يتعرض له أغلب أطفال العامة، ألا وهو تسمم الرصاص. كانت مستحضرات تجميل نساء الساموراي تحتوي على الرصاص الذي قد ينتقل إلى الأطفال الرضع عن طريق الرضاعة الطبيعية. بوجه عام، كان العامة أيضًا يتبعون نظامًا غذائيًّا

أكثر تنوعًا، بينما كان أفراد الساموراي يعانون من نقص الثيامين، مرض يُسمَّى أيضًا البري بري؛ لأنهم كانوا يأكلون الكثير جدًّا من الأرز الأبيض ومقادير قليلة من الحبوب الأخرى واللحوم. من سخرية القدر، أن العامة الذي يعملون في الحقول كانوا عادةً أفضل من الناحية الصحية إذا ما قُورنوا بأفراد الساموراي.

إذا ما نجا أيٌّ من صبية الساموراي من مرحلة الطفولة، فإنه يمر بعدة مراحل تدل عليها تغيرات في الملبس وتصفيف الشعر حتى يصبح في سن الرُّشد الذي يتراوح، رسميًّا، بين الثانية عشرة والسادسة عشرة من العمر. ومثلما كانت حال كل شيء في اليابان في الحقبة الحديثة المبكرة، لم تكن ثمة طريقة موحدة لتعليم الساموراي. بوجه عام، كان الصبي يبدأ دراسته في حوالي السابعة من عمره خارج منزل عائلته، حيث يمثل المعلمون والموجهون المصدر الرئيسي للتعليم المبكر. كانت الصداقات التي تتكون خلال تلك الفترة مهمة؛ فرفاق الطفولة يصبحون زملاء عمل خلال الحياة العملية للشخص البالغ. قد يقع المرشدون أو الصبية الأكبر سنًّا في حب أحد الصبية الأصغر سنًّا، حتى إنهم كانوا يحصلون على موافقة والده لتأسيس علاقة معه. الأمر الذي قد يُثمر في النهاية علاقة حب أفلاطونية وثيقة بعد البلوغ، رغم أن هذه العلاقات قد تصبح عنيفة في بعض الأحيان.

في القرن الثامن عشر، بدأ السادة يُنشئون مدارس في مقاطعاتهم ليتعلم فيها أفراد الساموراي الصغار النصوص الصينية الكلاسيكية، بما في ذلك تعاليم كونفوشيوس، أو القصص الحربية اليابانية، مثل قصة الهائيكي التي تحكي قصة الحرب بين عشيرتَي تايرا وميناموتو. بالإضافة إلى مهارات القراءة والكتابة الأساسية، كان الصبية يتعلمون الأخلاقيات وماذا يعني أن يكونوا محاربين. لم يكن جميع الساموراي يتلقَّون المستوى نفسه من التعليم؛ فكان عدم المساواة داخل طبقة المحاربين الاجتماعية يبدأ منذ سن صغيرة. في القرن السابع عشر، كان الصبية الذين يُولَدون لعائلات ساموراي عالية المرتبة الاجتماعية يحصلون على قدر من التعليم أكبر من نظرائهم في قاع المجتمع، ولكن بوجه عام، زادت معدلات التعليم والثقافة بمرور الزمن.

لم يكن غريبًا أن يتعلم المراهقون من أفراد الساموراي الفنون القتالية، إما عبر قاعات التدريب الخاصة (دوجو)، وإما في مدارس المقاطعات، وإما عبر مزيج من كلتيهما. أصبحت الفنون القتالية نفسها مصدرًا للتمييز بين أفراد الساموراي. كان أفراد الساموراي الأثرياء من المرتبة الاجتماعية العالية فقط هم من يتعلمون الفروسية، التي كانت تُعَد فنًّا قتاليًّا، أو يدرسون الرماية من على ظهور الخيول (يابوسامي).

أما المبارزة، فكان يتعلمها المحاربون من جميع الطبقات الاجتماعية. كانت جلسة التدريب النموذجية تشمل المشاركة في تدريبات هجومية ودفاعية محددة مسبقًا (كاتا)، باستخدام السيوف الخشبية وتكرار الأساليب الأساسية. ولكن احتكر السادة وأفراد الساموراي الذين ينتمون إلى مراتب اجتماعية عالية أساليب بعينها، على غرار أسلوب ياجيو شينكاجي ريو، أسلوب المبارزة الأول الذي يُعترف به رسميًّا. سُمي هذا الأسلوب تيمنًا بعائلة ياجيو، التي علَّم رؤساؤها المبارزة لشوجونات توكوجاوا وحصلوا على ألقاب سادة مقابل ذلك. مثلما كانت العلاقة بين الشوجونات والفنانين خلال حقبة موروماتشي (١٣٣٦–١٥٧٣)، التقى سادة ياجيو مفكرين آخرين عبر علاقاتهم بشوجونات توكوجاوا، وأثَّر هذا التعامل في كيفية الاعتراف بالمبارزة رسميًّا وتعليمها. في بعض المقاطعات، كان الطلبة من أفراد الساموراي الذين يدرسون أساليب قتال النخبة، على غرار ياجيو شينكاجي ريو، يحصلون على رواتب مقابل معداتهم وتدريباتهم. كما كانوا يستعرضون مهاراتهم أمام سادتهم المحليين كجزء من مناسبات سنوية. كان الساموراي من المراتب الدنيا يدرسون المبارزة أيضًا، ولكنهم كانوا ملزمين بدراسة الأساليب الأقل شهرة، أو الأحدث، أو حتى المحلية فقط. لم يكن أولئك الطلبة يحصلون على رواتب عادةً، أو يُسمَح لهم باستعراض مهاراتهم أمام السادة. وبما أن هذه الأساليب لم تكن وثيقة الصلة بالمسئولين من المحاربين، فقد تمتع ممارسوها بحرية أكبر في كيفية تطوير فنونهم القتالية؛ فقد مارس أفراد الساموراي ذوو المراتب الدنيا في المبارزة الحرة، والتي كانت سلفًا لرياضة الكيندو الحديثة.

كانت الشوجونية تتوقع من أفراد الساموراي أن يكونوا على استعداد للتحرك في حالة حدوث عصيان أو غزو، ولكن أغلب أفراد الساموراي لم يكونوا مهتمين بالتدريبات العسكرية. فنادرًا ما مارسوا هذه التدريبات بعد سنوات مراهقتهم، وفي سن البلوغ، لم يحضروا إلا جلسات التدريب الإجبارية التي تُعقَد من وقت لآخر، أصبح يُطلَق على أفراد ساموراي توكوجاوا لقب «موظفين حكوميين يتقلدون السيوف». في البداية، استخدم الساموراي الفنون القتالية طريقةً للتواصل مع إرثهم باعتبارهم محاربين، أو للتعامل مع رجال على شاكلتهم. ولم يكونوا مهتمين بتطبيق تلك الفنون القتالية في ساحة المعركة. في الكثير من المقاطعات، لم يعد الاستعداد العسكري واقعًا حياتيًّا. خلال النصف الثاني من حقبة توكوجاوا، لم يعد السادة يطلبون من الساموراي من الطبقات الدنيا أن يملكوا بنادق أو يحملوا أقواسًا وسهامًا. ففي واقع الأمر، كانت المهارات القتالية المطلوبة لإيقاف

المجرمين تُعَد الفنون القتالية الأشد تواضعًا؛ لأن أفراد الساموراي نادرًا ما تولَّوا مهام شرطية فعليًّا. فكان المنبوذون وغيرهم من العامة المهمشين هم من يطاردون المجرمين ويعتقلونهم، ويحرسون المساجين، ويعذبون المعتدين ويعدمونهم.

بعد بلوغ سن الرشد، تتمحور حياة محارب الساموراي خلال حقبة توكوجاوا حول أسرته ومقاطعته. وكان الشرف، إن وجد هذا المفهوم، يُعرَّف طبقًا لسلوك الفرد وولائه لعائلة السيد. كانت قد ولَّت أيام خدمة أمير حرب قوي يكتسب احترام تابعيه من بسالته في ميدان القتال، أو فطنته السياسية. لم تَضمَن عادةُ توكوجاوا في توريث الابن البكر أن يرث الحكم سيد كفء أو ذو شخصية آسرة في كل مرة. ومن ثم، عمل أفراد الساموراي على تأكيد الحفاظ على سمعة المقاطعة بدلًا من العمل من منطلق حبهم لسيدها. وكانوا يتخذون مُثُلهم العليا من الإرث الذي وصلهم من أسلافهم من حقبة الولايات المتحاربة، وكانوا يقدِّسون الصلات الأسطورية المشرِّفة بالعشائر الشهيرة، على غرار ميناموتو، أو نبلاء كيوتو، على غرار فوجيوارا. كان المسار المهني للساموراي محددًا بعدة أمور، وهي كالآتي حسب الأهمية: رتبة العائلة، والأقدمية، والموهبة.

كان من المعتاد أن يرث الابن الأكبر منصب والده. وكان هذا يشمل وظائف وضيعة على غرار الوقوف حارسًا على إحدى بوابات قلعة المقاطعة المحلية لعدة أشهر كل عام، أو وظائف مهمة على غرار أن يصبح أحد أوثق مستشاري السيد. كان الوضع أسوأ بالنسبة إلى الإخوة الأصغر سنًّا، الذين لم تكن لديهم ضمانة للحصول على وظيفة ثابتة في المقاطعة. وبما أن الابن الأكبر كان يرث ممتلكات العائلة أيضًا، كان أشقاؤه الأصغر يقعون تحت رحمته. وإن كانوا محظوظين، يمكنهم أن يصاهروا عائلة محاربين لا وريث لها، أو قد يتبنَّاهم ساموراي لا ولد له. فيما عدا ذلك، كان عليهم أن يعثروا على أي وظيفة مؤقتة، أو يتخلَّوا عن وضعهم كساموراي. تخلَّى أفراد الساموراي الذين حاولوا العثور على وظائف وضيعة في المقاطعة — خاصةً الابن الثاني والابن الثالث للعائلات — عن حياة الساموراي، وأصبحوا باحثين وكُتابًا وكهنة ومعلمين.

بالغت الدراسات القديمة عن الساموراي خلال حقبة توكوجاوا في وصف انعدام الحراك الاجتماعي داخل طبقات الساموراي الاجتماعية. تمتلك هذه الحُجة جاذبية حدسية خاصة؛ فالمحاربون قبل حقبة توكوجاوا كان بمقدورهم الترقي في الرتب بناءً على إنجازاتهم في الحرب، ولكن في عصر السلام، كانت فرص أفراد الساموراي لإظهار مواهبهم محدودة. تميل الدراسات الحديثة إلى تصحيح الفرضيات السابقة عن جمود

مجتمع الساموراي. كان أفراد الساموراي الذي يُولَدون لعائلات من النخبة أحيانًا ما يبدءون مسيراتهم المهنية بعمل بسيط. وكلما تقدموا في العمر وبرزت مواهبهم، زادت المسئوليات التي يكلِّفهم بها مستشارو المقاطعة. كان أفراد الساموراي الذين يُولَدون لعائلات متواضعة يواجهون المزيد من الصعوبات النابعة من تلك الرتب الاجتماعية، ولكن حتى في ذلك الحين، كان بعضهم يترقى بناءً على موهبته وحدها، خاصة عندما تواجه المقاطعة أزمات مالية أو سياسية.

لم يكن أغلب أفراد الساموراي العاديين يتولَّون مهام رسمية. كان الساموراي الذي يعيش في إيدو خلال فترة تكليفه طبقًا لنظام الحضور المتبادل يعمل لبضع ساعات كل يوم، وبعد الحصول على إذن سيده، يغادر مجمع المقاطعة ويذهب ليحج إلى معابد وأضرحة منطقة إيدو، الأمر الذي كان يُعَد جولة سياحية في الأساس. كان التجار يقيمون متاجرهم لبيع منتجاتهم، بينما كان المؤدون يقدمون عروضهم في الشارع، ويتجمع العرافون لاستغلال السياح، محوِّلين بعضًا من ممتلكات المعابد إلى أراضي معارض. حتى في عصرنا الحالي، لا يزال ضريح أساكوسافي طوكيو مصدرًا لجذب السياح، مثلما كان خلال حقبة توكوجاوا. بعيدًا عن المقامرة، ومعاقرة الخمر، وزيارة أحياء اللهو على شاكلة يوشيوارا، إذا ما امتلكوا ما يكفي من مال ليفعلوا، كان أفراد الساموراي يدرسون الأدب والشعر والموسيقى، والفنون القتالية، والفلسفة، مع العامة أو مع أفراد ساموراي من مقاطعات أخرى.

دعم الكثير من أفراد الساموراي دخلهم الهزيل من ميراثهم بوظائف على نطاق محدود. كان يُطلَق على هذه الوظائف «مصادر الدخل الإضافية»، وكانت تشمل زراعة المساحات الصغيرة، والنسيج، وصناعة الفخار، والتجارة، والمصنوعات اليدوية (مثل الدُّمى والمظلات). لكن لم يستغل جميع أفراد الساموراي أوقاتهم بهذه الطريقة النبيلة. فكان بعضٌ من الساموراي من أدنى الطبقات الاجتماعية يقامرون، ويتسولون، ويقترضون لكي يظلوا على قيد الحياة. يصف كاتسو كوكيتشي، محارب الساموراي من القرن التاسع عشر، حياته كشخص عديم الفائدة في سيرته الذاتية التي كتبها لتكون بمثابة تحذير لابنه، السياسي كاتسو كايشو. كان كوكيتشي الابن الثاني لأوتاني، أسرة ساموراي مغمورة على صلة بعشيرة توكوجاوا. لم يكن والده محاربًا، ولكنه كان الابن الثالث لمُرابٍ ثري أعمى تبنَّاه وجعله أحد أفراد أسرة أوتاني. ثم أصبح صهرًا لعائلة كاتسو وأصبح وريثها. على الرغم من حداثة عهده برتبة الساموراي، لم يعثر كوكيتشي على وظيفة ثابتة، وعاش

على راتب الميراث الهزيل، مثلما فعل الكثير من أفراد الساموراي ذوي الرتب الدنيا. ثم تمكن من تدبير معيشته عبر تأجير قطعة صغيرة من الأرض، وبيع وشراء السيوف، والتسول، والسرقة، والمشاركة في أنشطة مشبوهة أخرى سبَّب البعض منها المتاعب له. مثل الكثير من أفراد الساموراي، قضى أغلب حياته مدينًا. شكا أحد كتاب الساموراي من المحاربين الفقراء، قائلًا: «كانوا يتجهون إلى مهامهم كحرس مرتدين ملابس حصلوا عليها عبر النصب على مكتب الرهونات ليعطيهم إياها بصورة مؤقتة. وبمجرد أن يعودوا من مهامهم كحرس، يعيدون الملابس مباشرةً إلى مكتب الرهونات. وكان خدمهم يسخرون من أفعالهم تلك.»

وصف تاريخ عائلي كُتب خلال ثلاثينيات القرن العشرين صعوبات مماثلة واجهت عشيرة ساموراي من مقاطعة ميتو. على الرغم من عيش عائلات الساموراي على الكفاف، كانوا يرزحون تحت ضغوط الحفاظ على معايير مظهرهم أمام المجتمع. كما يقول مثل الساموراي: «لا يتوقف الساموراي الجائع عن وضع خلة أسنان في فمه حتى وإن لم يجد ما يأكله.» كان عليهم أن يحافظوا على توظيف عدد من المرافقين يتناسب مع رتبة العائلة. فنظريًّا، كان على هؤلاء المرافقين أن ينضموا إلى سيد المنزل في حملاته العسكرية، ولكن مع استبعاد نشوب حرب، أصبحت هذه الممارسة تقليدًا لا معنى له. لذا، كان أفراد الساموراي يوظفون رجالًا من العامة بصورة مؤقتة لكي يصحبوهم خلال الفعاليات الاحتفالية.

المنطقة الرمادية بين العامة والساموراي

هل كان العامة يحلمون بأن يصبحوا من فئة الساموراي؟ عادةً ما كان الأثرياء من العامة القرويين يستخدمون مكاناتهم وثرواتهم في الحصول على امتيازات المحاربين، مثل الحق في حمل السيوف أو كتابة كنياتهم في الوثائق الرسمية. ولكن أغلبهم لم يكونوا يريدون أداء الأعمال المرهقة التي يؤديها المحاربون ذوو المراتب الدنيا. ولكن هذا لم يمنع أن يقدِّم بعضٌ من العامة طلبات للحصول على رتبة الساموراي خلال القرن السابع عشر. كان كيان أحد هؤلاء العامة الذين يحلمون بأن يصبحوا محاربين. تربَّى كيان على يدَي جدته التي كانت ابنة أحد أفراد الساموراي، ومن ثم، فقد شبَّ على سماع قصصها عن المحاربين. وبما أنه الابن الرابع في عائلته، لم يكن يملك أدنى أمل في أن يتسلم تجارة عائلته التي ستُسلَّم إلى شقيقه الأكبر. لذا، في عام ١٦٥٥، وهو في السادسة عشرة من

عمره، بدأ التنقيب في تاريخ عائلته من أجل الحصول على رتبة محارب. وطلب من جيرانٍ له أن يعطوه الوثائق التي يملكونها، وزار المعبد البوذي المحلي من أجل البحث عن شواهد قبور وسجلات قديمة. ثم تخلى عن مسعاه في نهاية المطاف، وأصبح وريثًا لعائلة أخرى من العامة، ولكنه استخدم أبحاثه في المشاركة في كتابة تاريخ المنطقة.

كان من النادر أن يحقق أحد العامة رتبة محارب، إن لم يكن مستحيلًا. كان باستطاعة رجل من صفوة العامة أن يصاهر عائلة محاربين ذات مرتبة دنيا ويصبح وريثها، كما فعل والد كاتسو كوكيتشي. كان المسئولون عن المقاطعات يمنحون رتبة محارب لمدربي المبارزة المعروفين من العامة من أجل تعيينهم مدربي مبارزة رسميين. وكان التجار الأثرياء الذين يُقرِضون السادة مبالغ كبيرة من المال يحصلون على رتبة الساموراي، ويعملون مستشارين اقتصاديين للمقاطعة. كان يمكن لساموراي فقير أن «يبيع» رتبة الساموراي عن طريق التبني الرسمي لأحد العامة البالغين. كانت هذه الأمثلة على نقل الرتبة ظاهرية فحسب، وكان العامة يستخدمونها للتباهي على العامة الآخرين، ولم تكن تتضمن أي التزامات أو عروض فعلية للعمل محاربين. على أي حال، لم يكن رجلٌ من العامة ثريًّا بما يكفي لشراء امتيازات الساموراي ليرغب في أداء أعمال الساموراي الوضيعة التي لا تدرُّ دخلًا جيدًا.

ما زاد الفرقةَ بين العامة وأفراد الساموراي تعقيدًا هم أولئك الذي شغلوا المنطقة الرمادية. ففي الكثير من المقاطعات، كانت مجموعة من الناس عُرفوا بالكثير من الألقاب، على غرار: «أفراد الساموراي القرويون»، أو «أفراد الساموراي المزارعون»، يعيشون في القرى ويزعمون، إما زيفًا وإما حقيقةً، أن لهم أسلافًا من المحاربين. كانوا يحملون السيوف أو يستخدمون كُنيةً بصورة رسمية، وكانوا يمثِّلون مصالح المقاطعة في الريف. في أجزاء من منطقة كانتو التي تقع على مشارف مدينة إيدو، عندما كانت عصابة من الشباب تتجول في الأنحاء مسبِّبين اضطرابات خلال القرن التاسع عشر، كانت الشوجونية تطلب من أفراد الساموراي المزارعين أن يؤسسوا مجموعات مسلحة محلية ويدربوها. كما كان السادة يمنحون رتبة الساموراي المزارع لرواد الأعمال الريفيين على مساهماتهم في المقاطعة التي شملت استصلاح أراضٍ جديدة، الأمر الذي زاد من قاعدة المقاطعة الضريبية. وفي إيدو أيضًا، كانت ثمة عائلات كاملة تُعرَف باسم «ألف رجل بعقل واحد» (سينين دوشين)، والتي كانت تعمل في الأصل حرسًا خلال حقبة الولايات المتحاربة، وكانوا يخدمون باعتبارهم مسئولين صغارًا في ضواحي مدينة إيدو. كانت تربط هذه العائلاتِ

علاقاتٌ اجتماعية، خاصةً المصاهرة، وحافظت على هوية عمومية قوية. حتى إن بعضها كانت تتشارك التدرُّب على أساليب المبارزة، تينين ريشين ريو، تعبيرًا عن الفخر بأسلافهم من المحاربين. كان يعترف مسئولو الشوجونية في بعض الأحيان بأنهم «محاربون» في نهاية المطاف، مبارزون يعملون لصالح الشوجونية. وفي أحيان أخرى، كانت الشوجونية تصادر امتيازاتهم معتبرة إياهم مجرد عامة، الأمر الذي كان يزعجهم كثيرًا.

رغم وجود تلك المنطقة الرمادية بين المحاربين والعامة، زعم الكُتاب من فئة الساموراي أن لا أحد من العوام تمكَّن من التحول إلى ساموراي حقيقي. ذُكر في النص العسكري من حقبة توكوجاوا الأكثر انتشارًا بين القراء، «مرآة كاي العسكرية»: «حتى وإن قلَّد مدني الساموراي، فسيظل قلبه قلب تاجر. وفي خضمِّ المعركة، سيقلق بشأن خسارة أملاكه. إنه يفتقر إلى جوهر قانون البوشيدو، ولن يكون ذا فائدة.» في هذه الحالة، لا يشير مصطلح «بوشيدو» إلى «قانون» رسمي لسلوكيات الساموراي، فلا يوجد مثل هذا القانون من الأساس. حدد هذا القانون الفوارق الأساسية بين الساموراي والعامة؛ كان الساموراي يُولَد بهذه الرتبة ويؤدي المهام المتوقعة منه، حتى وإن كان هذا العمل يتعارض مع المهن التي يؤديها العامة. فيما عدا دفع الضرائب والعمل بالسخرة، لا توجد أي صلات وثيقة تربط بين العامة ونظام المحاربين. على مدار ما يزيد على ٢٦٠ عامًا، ظل نظام المحاربين يُقصي غير المنتمين إلى الساموراي عن عملية اتخاذ القرار، وفي الوقت نفسه، كان يحاول أن يحدَّ مما يستطيع العامة فعله في حياتهم اليومية، ولكنه لم يكن ينجح عادةً. لهذا السبب، لم يكن مستغربًا أن يسعد أغلب الناس، ومن بينهم بعض الساموراي، برؤية سلطة المحاربين تنهار.

الفصل الخامس

اختراع هوية الساموراي

يبدو الأمر وكأن جدارًا غير مرئي يفصل بين الساموراي وغير الساموراي، ولهذا السبب، نتأمل الاختلافات الجوهرية بين المجموعتين؛ كان باستطاعة الساموراي تقلُّد سيفين واستخدام كنًى، بينما لم يكن باستطاعة العامة فعل ذلك؛ وكان الساموراي يقيمون في المدن المحصنة، بينما يعيش الفلاحون في أماكن ريفية بعيدة. لطالما كانت العلاقة بين العامة والمحاربين علاقة خصومة. كان العامة يُجبَرون على دفع الضرائب إلى نظام المحاربين، وكان باستطاعة المحاربين، نظريًّا، أن يضربوا العامة بالسيف إذا ما وجَّهوا إهانة للساموراي، الأمر الذي كان يُشار إليه باسم «قتل الإهانة» (بوريي أوتشي). بوجه عام، ربما كانت تلك الممارسات تحدث بالفعل في بعض الأحيان. تشير السجلات إلى أن حالة قتل إهانة تحدث مرة واحدة تقريبًا كل أربع سنوات في المقاطعات. ولكن بدلًا من تتبع الاختلافات والخصومات بين الساموراي والعوام، يجدر بنا أن ننظر إلى أوجه التشابه بينهما. إذا بدأ عصر الساموراي خلال حقبة توكوجاوا، فقد بدأت كذلك الصورة النموذجية الحديثة للمحاربين اليابانيين.

خلال محاولتهم ترسيخ صورة الساموراي بوصفها فئة اجتماعية متميزة، أنشأ الشوجونات عن دون قصد صورة نموذجية للساموراي كان يمكن للعامة استهلاكها أيضًا. لم تتجاوز أعداد الساموراي نسبة ٨٪ من إجمالي عدد سكان اليابان، ولكن اخترق اختراع هوية الساموراي خلال حقبة توكوجاوا ثقافة العوام. كان العامة يقلدون، ويحتفون، ويسخرون، وينتقدون أفراد الساموراي. عندما أصبحت المبارزة نشاطًا اجتماعيًّا يساعد في تقوية الروابط بين أفراد الساموراي، كان الأثرياء من العامة يرغبون في المشاركة فيه. كما أصبحت الكُتيبات الإرشادية التي تعلِّم أفراد الساموراي كيفية التصرف خلال العلاقات الرومانسية مع الشابات شائعةً بين التجار الأثرياء. حتى إن مسرح الكابوكي،

النموذج الأصلي للثقافة الحضرية، الذي ارتبط بأحياء الضوء الأحمر، والعامة، والعروض الصارخة، كان قد بدأ في مدينة إيدو كعروض مسرحية تُقدَّم في الغالب في مجمعات منازل السادة أمام جمهور من المحاربين.

عادةً ما كان يُفسَّر انهيار نظام الساموراي الأخير بما يتعلق بالانتفاضات السياسية المحلية، والأزمات الاقتصادية، والضغوط الأجنبية. ولكن ربما أمكن تفسير بعضٍ من الانحدار بواسطة الاعتراف الذي انتشر بين الساموراي والعامة على حد سواء، بوجود فجوة تناقض بين مُثُل الساموراي وواقعهم، الفجوة التي ظلت تتسع على مدار حقبة توكوجاوا.

حتى إن أبسط سمات حياة الساموراي أصبحت مصدرًا لانبهار العامة. كان أكثر الوثائق انتشارًا في اليابان خلال حقبة توكوجاوا هو «كشف المحاربين» (بوكان). كان هذا الكشف الذي يُنشر عدة مرات كل عام يتضمن تفاصيل عن جميع السادة في اليابان وأكثر أفراد الساموراي البارزين الذين يعملون في الشوجونية. كان يشتمل على شعارات العائلات، وسلسال العشيرة، والعناوين، والهدايا المتسلَّمة من الشوجونية والمُعطاة لها، والمسافة ما بين منزل السيد وقلعة إيدو، والمناصب التي يشغلها الساموراي في نظام توكوجاوا. كان أفراد الساموراي بحاجة إلى معرفة من هم زملاؤهم ومن هم رؤساؤهم في بيروقراطية توكوجاوا؛ وذلك لأن الوظائف كانت تتغير باستمرار. ولكن يشير عدد الكشوف المنشورة إلى أن العامة كانوا يشترونها بأعداد أكبر من أفراد الساموراي. كان العامة في المدن الكبرى على غرار إيدو، أو أوساكا، أو كيوتو، حيث كانت تُباع الكشوف؛ يحتاجون إلى تلك التفاصيل لخدمة عملائهم من أفراد الساموراي. كان التعرف على شعار أحد أفراد الساموراي خلال موكب احتفالي لأحد السادة، أو معرفة المكان الذي تُوصَّل إليه البضائع جزءًا لا يتجزأ من العملية التجارية. ولكن كان امتلاك الكشوف وتحديثها مجانًا في المكتبات عدة مرات كل عام، عبر لصق صفحات جديدة فيها، أمرًا مشوِّقًا يشبه امتلاك أحدث كشوف رياضة البيسبول في عالمنا المعاصر. بعبارة أخرى، كان العامة يستمتعون بالوصول إلى المعلومات التي لم تكن متاحة لهم عن المحاربين قبل القرن السابع عشر.

ميَّز هذا الفعل البسيط لنشر المعلومات عن أفراد الساموراي والسادة؛ محاربي حقبة توكوجاوا عن أسلافهم. امتدت جذور هذه العملية إلى حقبة سابقة عندما كانت هوية المحاربين تُحدَّد عبر الوثائق. كان المحاربون النخبة المثقفون خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر يتعلمون ثقافة المحاربين باستخدام كُتيبات آداب السلوك (كوجيتسو) التي وصفت السلوكيات الصحيحة، على غرار الملابس المناسبة التي يجب ارتداؤها خلال

الاحتفالات، أو كيفية تصرف المرء خلال مسابقة رماية. يرجع تاريخ عادات وطقوس المحاربين إلى حقبة كاماكورا، ولكنها كانت تُطبَّق في الغالب على الخدم الذين كانوا يعيشون في مدينة كاماكورا نفسها أو يترددون عليها. زادت الكتابات عن ثقافة المحاربين بوجه عام خلال حقبة موروماتشي عندما كان التعامل بين المحاربين والنبلاء أكبر، وكان المحاربون متأثرين بالثقافة الملكية. بدأ انتشار كُتيبات قواعد السلوك من ذلك الزمان يزداد في حقبة توكوجاوا، ولكن كان للكشوف فائدة أكبر من مجرد تتبع معالم ثقافة المحاربين النخبة. كانت تحدِّد بدقة ما يجعل المحاربين مهمين. علاوةً على ما سبق، أنشَئوا درجةً من التجانس الوظيفي الذي لم يكن موجودًا قبل القرن السابع عشر.

كان السادة المُنصَّبون حديثًا والمحاربون النخبة يأخذون ضغط تحديد هوياتهم على محمل الجد. الكثير من أفراد الساموراي العاطلين (رونين)، الذين تُركوا في مهبِّ الريح بعد حقبة الولايات المتحاربة، عملوا معلِّمين ومستشارين لدى السادة في إيدو والمدن المحصنة في جميع أنحاء اليابان. كان أفراد الساموراي الذين لا يخدمون سيدًا يساعدون العائلات في التخطيط لاحتفاليات المحاربين والمشاركة فيها، فقد زادت أهميتها كجزء من حياة المحاربين الاجتماعية، خاصةً في إيدو. اضطُر السادة الثانويون إلى ابتكار سلاسل نسب من أجل إنشاء هويات للعشائر لم تكن موجودة في السابق. كذلك نشر أفراد الساموراي الرحالة كتبًا في التاريخ العسكري والعلوم العسكرية على غرار كتاب «مرآة كاي العسكرية»، الذي نُشر في بدايات حقبة توكوجاوا، وأصبح مؤلفه أوباتا كاجينوري من المعلمين الرائجين للعلوم العسكرية.

مُثُل المحاربين

تعرَّف العامة على قيم المحاربين عبر الثقافة الشائعة. في إيدو، بدأ الكابوكي باعتباره فنًّا مسرحيًّا يُعرَض أمام جمهور أغلبه من المحاربين، ومن ثم، كان يعرض مسرحيات تحتفي بأبطال المحاربين وقيمهم. بعد أن أصبح مسرح الكابوكي متاحًا للجمهور، حلَّت الطبقة الراقية في إيدو محل المحاربين كأبطال نموذجيين، ولكنهم كانوا يُصوَّرون تجسيدًا لصفات المحاربين، على غرار الشجاعة، والبراعة في القتال، والولاء.

كانت أكثر مسرحية كابوكي تُعرَض على الإطلاق هي المسرحية التي تحمل اسم «خزانة التابعين الأوفياء» عنوانًا لها، والتي تُعرَف أيضًا باسم «حادثة أكو»، أو «٤٧ رونين». عُرضت للمرة الأولى كمسرحية عرائس بناءً على أحداث تاريخية وقعت في بداية

القرن الثامن عشر عندما هاجم أحد السادة، ويُدعى أسانو، أحد كبار أفراد الساموراي في الشوجونية، كيرا، خلال احتفالية داخل قلعة الشوجون. ليس معروفًا السبب الذي دفع أسانو للهجوم على كيرا، ولكن المعتقد الشائع أن كيرا أهان أسانو لأنه لم يكن يعرف القواعد السلوكية السليمة. كان كيرا، الذي كان خبيرًا في تنظيم الاحتفاليات طوال نحو ٤٠ عامًا، مسئولًا عن أن جميع الحاضرين يعرفون أدوارهم جيدًا، بما في ذلك سيد إحدى المقاطعات الصغيرة، والذي يصغره بكثير، أسانو.

بما أن استلال السيوف داخل قلعة الشوجون كان محرمًا، ألقت شرطة الشوجونية القبض على أسانوا على الفور، و«أعدمته» عبر طقس سيبوكو (انتحار طقسي يحدث عبر بقْر البطن، ثم قطع الرأس بواسطة صديق موثوق، إذا كان المرء محظوظًا)، وحُلَّت مقاطعة أكو التابعة له، وأُجبر تابعوه على أن يصبحوا ساموراي بلا سيد (رونين). بعد نحو عامين من التخطيط للانتقام لمقتل سيدهم، هاجم ٤٦ من إجمالي ٤٧ رونين كيرا وقتلوه. قال بعض المعاصرين لذلك الحدث إن الرونين كانوا يأملون في عدم تلقِّي عقاب قاسٍ لأن أفعالهم عكست الولاء لسيدهم. ولكن حُكِم عليهم أيضًا بالإعدام بطقس سيبوكو. في السابق، لم تكن أنظمة المحاربين تستخدم أي نوع من العقاب بالموت، كما أن أفراد الساموراي خلال الحقبة السابقة لحقبة توكوجاوا لم يكونوا يبقرون بطون أنفسهم عادةً. إلا أن أفراد الساموراي في حقبة توكوجاوا كانوا يمجِّدون طقس سيبوكو على أنه دليل على رجولة محاربي العصور الماضية، وتمادَوا في الأمر لدرجة أنهم ألَّفوا كُتيبات لتوحيد تفاصيله. أقرت شوجونية توكوجاوا طقس سيبوكو كعقوبة قصوى.

على الرغم من أن الحدث نفسه لم يلقَ الكثير من الاهتمام وقت حدوثه، أحب الجمهور النسخ الدرامية منه. فقد نتج عن الهجوم والانتحار الطقسي الجماعي مشاهد درامية قوية. علاوة على ذلك، كان الحدث يدور حول مجموعة من أفراد الساموراي من مرتبة دنيا يتعاونون معًا لمقاومة السلطات والتضحية بأنفسهم كمجموعة؛ الموضوع الذي ربما راق العامة في الحضر الذين كانوا يتعاملون عادةً مع محاربين من مراتب دنيا.

من جانب آخر، شكَّل الحدث التاريخي وما تلاه من شهرة واسعة أزمة بالنسبة إلى ساموراي توكوجاوا؛ لأنه كشف التباين بين مُثُل المحاربين وواقعهم. فأفراد الساموراي، كرجال أفعال، كان من المفترض أن يُظهِروا الولاء لسيد عشيرتهم ومقاطعتهم. فاحتفَوا بالمحاربين السابقين الأبطال وشجاعتهم. وعلى صعيد آخر، لم يكن من المفترض أن يتصرف الساموراي بعنف. حاولت الشوجونية أن تمنع الحرب من على القمة، بين

السادة، عبر وضع قواعد لأنشطة السادة، على غرار توسعة القلاع، ومطاردة المجرمين من المحاربين عبر الحدود بين المقاطعات، وأمور من هذا القبيل. كما حرَّمت على الساموراي المشاركة في المعارك وعقاب المعتدين بالإعدام. روج كُتاب الساموراي لتعاليم كونفوشيوس وغرس الصفات المحبَّبة في النفس، وليس العنف. بعبارة أخرى، كيف كان الساموراي سيرى نفسه محاربًا في عالم يخلو من الحروب، ومن دون أن يلجأ إلى العنف؟ لم يُحلَّ هذا التوتر بالكامل أبدًا خلال حقبة توكوجاوا، ولم يوافق مثقفو الساموراي على أي تصور للساموراي المثالي.

أطرى بعض كُتاب الساموراي على السبعة والأربعين رونين لأنهم تصرفوا من منطلق شعورهم بالولاء لسيدهم. وقال آخرون إن الرونين تصرفوا بشكل خاطئ لأن كيرا لم يكن من قتل سيدهم، فقد أعدمت الشوجونية أسانو بسبب الجرم الذي ارتكبه، وكان قانون الشوجونية يتفوق على المفاهيم الشخصية عن المبادرة، والشرف، والولاء. وانتقدهم أحد الكتاب على انتظارهم لما يزيد على السنة قبل أن ينفِّذوا هجومهم، في حين أنه كان يجدر بهم أن يقتلوا كيرا على الفور بعد إعدام أسانو. دمج هياشي هوكو، رئيس أكاديمية كونفوشيوس في إيدو، وجهتَي النظر معًا، واستشهد بالنصوص الصينية في شرح جوهر أن يكون المرء محاربًا.

> بادئ ذي بدء، سأستعرض انتقامهم من منظور مشاعر ٤٦ رجلًا. كان من المحال أن «يتشاركوا السماء نفسها مع عدو سيدهم»، وأنهم «ينامون على البوص ويستخدمون سيوفهم وسائد» (كلتا الصورتين مقتبستان من «سجل الطقوس الدينية» الصيني). لم يكن التمسك بالحياة مع تحمل الخزي والمهانة أسلوب الساموراي. كما يجب أن نتناول انتقامهم من منظور القانون. أيُّ شخص يعتبر القانون عدوًّا له يجب أن يموت ... هذان المنظوران ليسا متطابقين، ولكنهما قد يُكملان أحدهما الآخر عمليًّا، ومن دون تعارض. ففي المنظور الأول، يجب أن يوجد حكام محسنون ووزراء حكماء يحكمون بواسطة توضيح القانون وإصدار المراسيم. وفي الثاني، يجب أن يوجد تابعون مخلصون وساموراي شرفاء ينفِّسون فورًا عن غضبهم في إطار المسار المحدد لمساعيهم.

يتضمن كتاب «في ظلال الأوراق» (هاجاكور) أكثر ردود الفعل المتطرفة على الربط بين العنف الذي ورثه المحاربون وتحولهم إلى السلم. فمن الناحية النظرية، كان محاربو

توكوجاوا سيُعدمون إذا ما حاربوا بعضهم بعضًا، أيًّا كان السبب. إذن، ما الذي يجدر بمحارب ساموراي أن يفعله إذا ما أُهين على يد محارب ساموراي آخر، خاصةً لو كان من مرتبة دنيا؟ فربما سيُعدم، وتُعاقب عائلته إذا ما هاجم من أساء إليه. ولكنه إذا ما تجاهل الإهانة، فإنه يخاطر بأن يخسر ماء وجهه أمام أعين أقرانه من المحاربين. وكانت الإجابة عن هذا السؤال، طبقًا لياماموتو، مؤلف الكتاب، أن يختار الموت. كان لياماموتو رأيه الخاص في السبعة والأربعين رونين، وهو أنه كان يجدر بهم أن يقتلوا كيرا على الفور من دون التفكير في مصيرهم. كان العار أسوأ من موت محارب ساموراي واحد؛ لأن موته سيكون حالة فردية، أما العار فقد يمتد ليبلغ عائلته، والأهم، أنه قد يؤثر في سمعة عشيرة سيده. يبدأ كتاب هاجاكور بعبارة «طريق الساموراي هو الموت»، وتسبب انتقاده للساموراي المحليين والشوجونية في أن يصبح كتابًا مثيرًا للجدل. كان الكتاب يتحدث بشكل خاص عن أفراد الساموراي بمقاطعة نابيشيما، ولم يكن معروفًا بوجه عام حتى عودته كوسيلة دعائية عندما بلغت الحرب والفاشية ذروتيهما خلال ثلاثينيات القرن العشرين.

داخل عالم توكوجاوا، لم يعد العنف من سلوكيات الساموراي المقبولة. إلا أن تهذيب النفس عبر دراسة الآداب الصينية الكلاسيكية على غرار «كتاب التعاليم»، أصبح جزءًا من تعلم المحاربين قبل القرن السابع عشر، وقامت قيم محاربي ساموراي توكوجاوا على التأويلات الصينية التالية لتلك النصوص القديمة؛ المدرسة الفكرية التي سُميت الكونفوشية الجديدة. علَّمت الكونفوشية الجديدة محاربي ساموراي توكوجاوا توجهاتهم نحو السيد، والعائلة، والمجتمع. وقال زعماء المحاربين إن التعليم «التثقيفي» يجب أن يظل مُطعَّمًا بالتعليم القتالي (بو)، ولكن لم تعد ثمة أي فرص لأن يُظهِر المرء مهاراته القتالية خارج أماكن التدريب على الفنون القتالية. ولم تعد الفنون القتالية تتخطى كونها التجسيد المادي لتهذيب النفس عن طريق التعليم التثقيفي.

لم تتوافق تلك القيم مع واقع أغلب أفراد الساموراي الذين كانوا يشعرون، على غرار كاتسو كوكيتشي، بالقلق من عدم قدرتهم على كسب قوت يومهم. وإذا كانوا يمتلكون بعضًا من ثروة على الأقل، كانوا يُبدون اهتمامًا أكبر بأداء أنشطة لا منهجيةٍ. اتفق الباحثون على أن العصر الذهبي لهوية الساموراي طالما كان موجودًا في الماضي الذي يستمدون مُثُلهم منه. كما علَّق أحد أفراد الساموراي شاكيًا في عام ١٨١٨: «في العصور الماضية، كان من الشائع أن يسخر المحاربون من أولئك الذين يسعَون إلى الأناقة

«كتابعين». أما الآن، فقد أصبح المحاربون النخبة يتصرفون كالتابعين، وأصبحت الأغلبية تشبه النساء.»

ربط كُتَّاب الساموراي بين هذا الفقر «الروحي» والتدهور الاقتصادي، وكانوا يلقون باللوم عادةً على التمدين أنه لوث أسلوب معيشة الساموراي بصيحات العامة. وبَّخ أحد المفكرين مَن يعيش في إيدو من محاربين على إنفاقهم المال «وكأنهم يعيشون في نُزُل». فعن طريق إجبار أفراد الساموراي على العودة إلى الريف، سيتمكنون من العودة إلى أسلوب الحياة المتسم بالاكتفاء الذاتي، والحياة الأبسط، ويعيدون تعلم قيم المحاربين «الأكثر نقاءً» المستمدة من العصور السابقة. لاحظ آخرون أن العامة الذين يعيشون في المدن قد يتبعون الساموراي إلى الريف ويركزون على العمل في الزراعة بدلًا من العمل لدى عدد كبير من الساموراي في المدن المحصنة.

بدايةً من القرن الثامن عشر، أجرت الشوجونية سلسلة من الإصلاحات لحل مشكلتَي أزمة الساموراي الاقتصادية وانحدار هوية الساموراي المتلازمتين. كان ماتسوديرا سادانوبو، حفيد شوجون توكوجاوا الثامن، وكبير مستشاري الشوجونية، ومهندس إصلاحات أواخر القرن الثامن عشر، يتخيل مجتمعًا على الطراز الكونفوشي يقوم على النظام، مع وجود محاربين مهذبين يتمتعون بالسمو الأخلاقي على قمته. شملت الإصلاحات مراسيم حاولت تقييد حرية النشر، وتقييد أنشطة التجار، واجتثاث التعاليم المهرطقة من المجتمع. ولكنه كان مهتمًّا اهتمامًا خاصًّا بتقليل نفقات الشوجونية، وطالب الساموراي بأن يقتصدوا في نفقاتهم، وأن يركزوا على تحسين التعلم التثقيفي (بون)، والتعليم القتالي (بو). كما استمد مُثلًا من الأصول البعيدة للساموراي، وكان يصحب أتباعه من الساموراي في جولات تنزُّه في الريف.

على الرغم من محاولات سلطات المحاربين لإعادة الحياة إلى هوية الساموراي وسلوكياتهم، كان الساموراي أنفسهم يسخرون من أحوالهم. جاء أحد الردود الساخرة الشهيرة على إصلاحات سادانوبو كالآتي: «بون بو، بون بو، لا يمكنني النوم ليلًا!» كان الكثير من هؤلاء الكُتَّاب ينحدرون من عائلات ساموراي من مراتب دنيا هجروا مسيرة الساموراي المهنية التي لا مستقبل لها، من أجل العمل في مجال الفكر. أحد هؤلاء الرجال كان هيراجا جيناي، الذي كان معلمًا وكاتبًا ومخترعًا، هجا صورة الساموراي الفاسدة في مقال بعنوان «عن إخراج الريح» (١٧٧١) يتحدث عن مؤدٍّ برع في إخراج الريح كموهبة موسيقية. استخدم جيناي ساموراي ريفيًّا ساذجًا يُدعى «كرانكشو

ستونينجتون، المحترم» كنموذج من أجل انتقاد قيم المحاربين. وبَّخ كرانكشو العازف بإخراج الريح والجمهورَ قائلًا لهم إن الشوجونية سمحت بتقديم العروض الفنية في الشوارع لتعليم العامة الوفاء والإخلاص. واستشهد بحادثة السبعة والأربعين رونين التي صُوِّرت في خزانة التابعين الأوفياء كمثال. وأضاف: «انتفاخات الأمعاء أمر شخصي ولا يجب أن يُعرَض على الملأ. أي فرد ساموراي مهذب كان سيقتل نفسه حرجًا إذا ما أخرج ريحًا عن دون قصد في صحبة رجال مهذبين.» وضح نقد جيناي كيف طوَّع العامة الثقافة كما يحلو لهم، رغم محاولات الشوجونية الترويج لقيم المحاربين عبر الثقافة الشعبية. كما سخر من فكرة شرف الساموراي، فإطلاق ريح غير مضر قد يدفع الساموراي إلى الانتحار بدلًا من المخاطرة بالتعرض للخزي على الملأ.

ظهرت تلك المحاكاة الساخرة للساموراي في الثقافة الشعبية عدة مرات. تحكي أشهر روايات حقبة توكوجاوا، تحت عنوان «القدمان»، التي ألَّفها ابن أحد صغار المحاربين، مغامرة رجلين، كيتا وييجي، اللذين ظلا يسكران ويلهوان، ويرتكبان الحماقات طوال الطريق ما بين كيوتو وإيدو. في حانة على الطرق، يلتقي الرجلان محارب ساموراي سكران، وبضع شابات (إحداهن تُدعى شيمي)، ومهرجًا:

> صاحت الفتيات: «أوه، يا لك من رجل قميء. انظروا إلى وجهه. انظروا كيف يجعل عينيه تبدوان غريبتين. إنهما شديدتا البريق والجحوظ!»
> صاح محارب الساموراي في فورة غضب مفاجئة: «أنتن تُهنِّني. انظرن إلى وجوهكن بدلًا من وجهي ...» ثم نهض واقفًا، ولكن أمسكت به النادلات. وقلن: «مهلًا، مهلًا. لا شيء يستحق أن تغضب بسببه.»
> قال المهرج: «لا تكوني وقحة يا شيمي. سأخبرك بما سنفعل. بدأنا نشعر بالملل؛ لذا دعونا ننشر البهجة في المكان ونبتهج كما لو كنا في حمام بخار.»
> قال محارب الساموراي: «حمام البخار حمام فارغ. إنه يعتقد أني أحمق. لا يزال عقلي واعيًا ويمكنني ضربه بسبب وقاحته.» كان من الجلي أن محارب الساموراي سكير غاضب.

استدعى الساموراي الفتيات والمهرج للترفيه عنه ذلك المساء، ولكن في نهاية المطاف، حاول أن يؤكد على فكرة أن الأشخاص الذين لا ينتمون إلى فئة الساموراي يجب أن يتذكروا قدرهم الحقيقي عندما يتعاملون مع أحد أفراد الساموراي، فاتهمهم مرة أخرى

بالوقاحة. ولكن بدلًا من أن يخشَوه، واصلوا مضايقته مدركين أن سكره ومحاولاته العقيمة أن يفرض سيادته عليهم كانت تجعله يبدو أشد عجزًا.

شكل ٥-١: الرسام هوكوساي، المعروف بطبعته الخشبية «الموجة العظيمة»، يسخر من مفهوم الواجب لدى المحاربين. يظهر في هذه اللوحة ثلاثة من الخدم ينتظرون بجانب المرحاض، ثابتين لا يتزحزحون، بينما تنبعث من سيدهم رائحة كريهة.

أدرك الكتَّاب والفنانون أن الوظائف الجسدية لا تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية؛ لذلك استخدموا النكات المتعلقة بالمراحيض لانتقاد أي مجموعة، وخاصة أفراد الساموراي الذين يتكبرون. الفنان هوكوساي، المشهور بطبعته الخشبية «الموجة العظيمة»، نشر كتابًا يضم مجموعة من المطبوعات تحتوي على مشهد بعنوان «المرحاض»،

والذي يصور تابعين من الساموراي يقفون حول سيدهم في طاعة بينما يقضي حاجته. يؤمن التابعون الثلاثة بمُثُل الساموراي أكثر من اللازم، مضحِّين براحتهم الشخصية في سبيل الواجب.

هوية العامة والمحاربين

على النقيض من نظرائهم من حقبة ما قبل توكوجاوا، ساعد العامة في إنشاء ثقافة المحاربين. كانوا يشترون كشوف المحاربين، ويدرسون المبارزة، ويستأجرون معلمين من المحاربين، ويشترون الكتب العسكرية. كما احتفَوا بمُثُل الساموراي في الثقافة الشعبية، سواء في المناطق الريفية أو في المدن. كان الفلاحون في القرى يقدمون مسرحيات الكابوكي التي كانت تتضمن مشاهد من معارك تحتوي على عدد كبير من الممثلين، من بينهم أعضاء في الروابط الشبابية المحلية. المسألة ببساطة أن تلك المسرحيات الحربية كسرت رتابة الحياة اليومية. حتى إن بعض العامة درسوا الفنون القتالية، ليس من أجل الدفاع عن أنفسهم ومساواة رءوسهم بالساموراي فحسب، بل أيضًا لاستخدام هذه الأساليب في المسارح الريفية والمهرجانات القروية.

احتفى كُتَّاب الساموراي بمشاركة العامة في ثقافة المحاربين، ولكن حتى حد معين. كان العامة إما يقرءون روايات محلية مختلفة للقصة الحربية من القرن الرابع عشر تحت عنوان «قصة السلام العظيم» (تايهيكي) أو يستمعون لها. كانت تايهيكي تقص قصة الصراع بين البلاطَين الشمالي والجنوبي خلال تلك الفترة. مجَّد المؤلفون جنرال الإمبراطور جو دايجو، الذي يُدعى كوسونوكي ماساشيجي، واحتفَوا بقيمٍ على غرار الولاء والتضحية بالنفس. وعندما استُخدمت كنص تعليمي، علمت صغار العامة كيفية قراءة الشخصيات الصينية (كانجي)، ونشرت الدروس الأخلاقية. كانت قصة تايهيكي مشهورة للغاية، لدرجة أن مؤلفين استخدموها كإطار تاريخي للتعليق على الأحداث الحساسة سياسيًّا — حادثة السبعة والأربعين رونين خير مثال على ذلك — بدلًا من المخاطرة بدخول السجن بسبب الحديث عن الموضوعات المحرمة.

انتشرت نصوص محاربين أخرى من الحقبة السابقة لحقبة توكوجاوا بين العامة والساموراي. نَسخت كتب على غرار «إيماجاوا النساء» و«إيماجاوا العامة»، موضوعاتٍ تضمَّنها «خطاب إيماجاوا» من القرن الخامس عشر، وهو أكثر الخطابات التي تسدي النصائح إلى المحاربين، الأمر الذي أكد على أهمية التعليم التثقيفي (بون). بالطبع،

لم يكن جميع القرويين يستطيعون القراءة، ولكن كان بعض زعماء القرى يلقون محاضرات للقرويين عن الأخلاقيات باستخدام نفس الكتابات العسكرية الشائعة بين أفراد الساموراي.

تذبذب موقف الشوجونية تجاه أغلب أنشطة الساموراي القتالية، خاصةً المبارزة والرماية، فقد كانت تمنعها تارةً وتشجعها تارةً أخرى. انظر إلى المرسوم الآتي من عام ١٨٠٥ الذي أصدرته الشوجونية، وانتشر على مدار القرن التاسع عشر في الكثير من المقاطعات المحيطة بمدينة إيدو:

> نما إلى علمنا أنه يوجد بهذه المنطقة أفراد ساموراي عاطلون يتسكعون. يتعلم الفلاحون الفنون القتالية ويتجمعون معًا من أجل التدرب عليها، الأمر الذي قد يتسبب في أن يهملوا أعمالهم الزراعية. لقد نسوا رتبتهم الحقيقية وأصبحوا متعجرفين. يجب إخبارهم بأن يتوقفوا عن فعل ذلك، ويجب على معلمي الفنون القتالية أن يتوقفوا عن تعليم فنونهم للقرويين.

يقدم المرسوم العديد من المشكلات التي كانت تواجه سلطات المحاربين خلال القرن التاسع عشر. فقد بدأ بذكر بطالة الساموراي. وكان الرونين الذين يسعَون جاهدين لجني قوت يومهم يتجاهلون مراسيم الشوجونية التي كانت تحرِّم عليهم نقل ثقافة المحاربين إلى العامة. بتقديم ثقافة الساموراي إلى العامة في صورة تعليم فنون قتالية أو تدريسها، أدركوا عن دون قصد جاذبيتها الكبيرة، وإمكانية تطبيقها على كل من تمكن من تحمل تكلفتها. كان الثراء، وليس النسب، قادرًا على شراء بعضٍ من أحلام المحاربين على الأقل. على الرغم من سيطرة المحاربين على الأراضي، فإن العامة تفوقوا عليهم كقوة اقتصادية. وفشلت إصلاحات سادانوبو وما تلاها من إصلاحات أخرى في إيقاف تدهور مكانة الساموراي ومعاناتهم الاقتصادية. كذلك، يُظهِر المرسوم عجز النظام عن منع عامة الناس عن محاكاة ثقافة المحارب بطريقتهم الخاصة. وسواء كان العامة يحاكون أفراد الساموراي أو يسخرون منهم، لم يكن لدى أفراد الساموراي سيطرة على كيفية نظر الناس إليهم، أو كيفية تصويرهم.

مع تفشي الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية في منطقة إيدو الكبرى خلال منتصف القرن التاسع عشر، بدأت الشوجونية تعتمد على العامة للدفاع عن نفسها. اعتمدت دورية كانتو لحفظ النظام، التي أُنشئت للتعامل مع معدلات الجريمة المتزايدة في ضواحي إيدو،

على مجتمع النخبة الريفي في الحصول على معلومات عن المجرمين المحليين. وتعاون القرويون معًا لإنشاء تحالفات دفاعية. وكانوا يُدارون بواسطة قرًى أكبر وأكثر ثراءً تركزت فيها تجمعات المجرمين. حظي زعماء القرى بامتيازات كانت عادةً حكرًا على الساموراي، بما في ذلك حق حمل السيوف واستخدام الألقاب العائلية في الوثائق الرسمية. تدرب أعضاء التحالفات على المبارزة، ليس من أجل الاستخدام العملي فحسب، بل أيضًا من أجل تقوية الترابط الاجتماعي الداخلي.

كشف الوجود المتزايد للغربيين في البحار المحيطة باليابان عن الكثير من نقاط الضعف الهيكلية في نظام حكم المحاربين. كان المسئولون في إيدو قلقين للغاية من إمكانية تعرض «ضريح إيسيه» الإمبراطوري لهجوم من الغربيين، فطلبوا من كهنة الشنتو، بعد عملية تفتيش أُجريت عام ١٨٥٥، إجراء مسح لأجراس المعابد التي يمكن صهرها لصنع المدافع والبنادق، والبدء بتدريب العامة على فنون القتال، وخاصة الرماية بالبنادق، كخطوة أولى للدفاع المحلي ضد الغزو. وصلت تلك الجهود إلى ذروتها في عام ١٨٦٣ عندما أنشأ الضريح ميليشيات من القرويين. أصبحت ميليشيات القرويين أكثر شيوعًا مع تزايد الأخطار الخارجية والداخلية في منتصف القرن التاسع عشر، لدرجة لم تعد الشوجونية قادرة على احتوائها بالاعتماد على المحاربين وحدهم. يبدو أن واقع المحاربين لم يرقَ إلى مستوى المآثر البطولية التي تُعرَض على خشبة المسرح، وفي الكتب، وفي أكاديميات المبارزة.

الانهيار و«الإصلاح»

كان هناك العديد من المشكلات التي أدت إلى ثورة ميجي الإصلاحية عام ١٨٦٨، وهو صراع اندلع بين أفراد الساموراي بزعامة سادة المقاطعات الخارجية الذين قاتلوا باسم الإمبراطور المراهق ميجي وشوجونية توكوجاوا وحلفائها. على الرغم من أنها لم تكن حربًا بحجم الحرب الأهلية الأمريكية، فقد حظيت بمكانة «الأصل» الأسطوري لليابان الحديثة. في العقود التي سبقت ثورة الإصلاح، ضغطت عدة مشكلات متشابكة على نظام الساموراي والمحاربين بشكل عام، وهي: تهديدات الدول الغربية، والصراعات الداخلية داخل الشوجونية نفسها، وتغير العلاقة بين الساموراي وغير الساموراي. نشأت هذه الضغوط في أوائل القرن السابع عشر على أقصى تقدير، ونتجت عن سياساتٍ سنَّها نظام المحاربين للحفاظ على سيادة الساموراي.

بحلول بداية القرن التاسع عشر، قلق قادة الشوجونية بشأن كيفية التعامل مع الوجود المتزايد للغربيين على حواف أراضي اليابان. في عام ١٨٢٥، ومع تجربة المزيد من السفن الأوروبية دخول المياه الإقليمية اليابانية، أُمر السادة الساحليون بإطلاق النار على تلك السفن لإبعادها، وهي جهود لم تُكلَّل بالنجاح إلى حد كبير. ألغت الشوجونية هذا الأمر في نهاية المطاف، ولكنه أوضح عدم قدرة الشوجونية على الاستعداد بالشكل المناسب للتهديدات الخارجية. أدى تزايد عدد سفن صيد الحيتان الأمريكية في المحيط الهادئ، وازدهار التجارة في الصين، إلى ارتفاع عدد البحارة الذين تحطمت سفنهم في اليابان. حاولت كل من بريطانيا، وفرنسا، وهولندا، وروسيا توسيع نطاق الوصول التجاري والعلاقات الدبلوماسية في جميع أنحاء آسيا، ولم ترغب الشوجونية في الوقوع فريسة لسلسلة من الصراعات المتعلقة بتهريب الأفيون البريطاني في الصين، كما حدث للصينيين خلال حروب الأفيون (١٨٣٩–١٨٤٢). بالنسبة إلى بعض المحاربين، لم يكن الأوروبيون أكثر من مجرد تجار انتهازيين، وهي مهنة كان يرى الساموراي أنها أنانية دنيئة. ولكن اعتقد هؤلاء المحاربون أنه إذا استطاعوا احتواء نشاط التجار الأجانب في ناجازاكي، فسيصبح بمقدورهم تجنب التشابكات الدبلوماسية. وعلى النقيض من أوروبا، لم تكن التجارة بين دول شرق آسيا في ذلك الوقت تتطلب أي علاقات دبلوماسية بين الحكومات. في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وبعد محاولات متكررة من الروس لفتح علاقات مع اليابان، سمحت لهم الشوجونية بالتجارة على نطاق محدود في ناجازاكي، على أمل أن يرضيهم ذلك. ولكنه لم يفعل، فقد أرسى قبطان روسي سفينته عند جزيرة تسوشيما عام ١٨٦١، وطالب سيدها بأن يؤجر له أرضًا. ولم تتمكن الشوجونية من طرد الروس، فاضطُرت إلى طلب المساعدة من البريطانيين.

وصلت الضغوط الغربية إلى ذروتها بوصول قائد الأسطول الأمريكي ماتيو بيري إلى خليج إيدو في عام ١٨٥٣. علمت الشوجونية من الهولنديين ومملكة ريوكيو أن بيري كان ماضيًا في طريقه، لكن ظهور «سفنه السوداء» بالقرب من إيدو بدلًا من ناجازاكي أثار حالة من الذعر بين قادة الشوجونية. وكان الكثير من أفراد الساموراي يشعرون بالفضول لا الاضطراب. وفحص مسئولو المحاربين وطاقم السفن الأمريكية أسلحة بعضهم البعض في مناخ يعمُّه السلام. ومع ذلك، فقد أثَّرت مطالبة بيري بأن ترد شوجونية توكوجاوا على طلب الرئيس ميلارد فيلمور بإقامة علاقات تجارية ودبلوماسية محدودة على الأقل، إن لم تكن معاهدة صريحة، على علاقة الشوجونية بكل من السادة والمؤسسة الإمبراطورية.

وعد بيري بأن يعود في خلال عام ومعه سفن ذات تسليح أفضل. في تلك الأثناء، خالف آبي ماساهيرو، كبير المستشارين في شوجونية توكوجاوا، تقاليد توكوجاوا عندما سأل جميع السادة — يشمل ذلك سادة المقاطعات الخارجية الذين كانوا يُستبعدون عادة من عملية صنع القرار الرسمية في الشوجونية — عن آرائهم فيما يتعلق بكيفية الرد على الأمريكيين. لماذا تعد الشوجونية الآن بحاجة إلى آرائهم بعدما ظلت تبعدهم عن قراراتها السياسية طوال ما يزيد قليلًا على ٢٠٠ عام؟

ترتبط إجابة هذا السؤال بمشكلة واجهتها جميع عائلات المحاربين البارزة منذ بداية حقبة كاماكورا على الأقل، وربما قبل ذلك؛ مشكلة الخلافة. تُوفي شوجون توكوجاوا آنذاك، إييوشي، بعد أسابيع قليلة من وصول بيري للمرة الأولى، وكان خليفته، إيسادا، ضعيفًا سياسيًّا وجسديًّا، حيث كان يعاني عدة أمراض منذ طفولته. سيطر آبي وأنصاره على سياسات الشوجونية، ولكن لم تكن فعلته هذه خالية من العواقب. كان يريد إجماعًا لأن الشوجونية كانت ضعيفة.

ولسوء حظ آبي، لم يتمكن من الحصول على إجماع. تراوحت ردود السادة بين ردود على غرار «فتح البلاد» للأمريكيين من خلال التبادل التجاري معهم، وتعلم علومهم وتقنياتهم، وبين الإصرار على رفض جميع طلبات الأمريكيين، حتى لو أدى ذلك إلى حرب لا يمكن الانتصار فيها. عندما عاد بيري في عام ١٨٥٤، وقَّع آبي معه معاهدة كاناجاوا. لم يتقبل آبي أو السادة الذين دعموا المعاهدة الغرب كما هو. لم تكفل المعاهدة للأمريكيين الكثير، وتجنَّبت اليابان إشعال حرب، ولكن جاءت انتقادات العديد من السادة، والنبلاء ذوي النفوذ السياسي في كيوتو، وأفراد الساموراي الموالين للإمبراطور ومؤسسته، سريعة موجعة.

أثناء دراسة شوجونية توكوجاوا، يسهل نسيان القضية الدائمة الأخرى في تاريخ الساموراي: تعامل كل نظام مع البلاط والإمبراطور في كيوتو. لم يؤثِّر نبلاء كيوتو في الأحداث السياسية والاجتماعية في اليابان أثناء حقبة توكوجاوا بنفس قدر تأثيرهم فيها قبل القرن السابع عشر. لم يعرف النبلاءَ والأباطرةَ في كيوتو أو يهتم بهم سوى القليل من اليابانيين. لم يرَ الشعب العائلة الملكية إلا في الكتابات التاريخية. ولأن كتابة التاريخ تتم دائمًا وفقًا لوجهة نظر معينة، سواء أدرك المؤلف ذلك أم لا، فقد رأى الشعب المؤسسة الإمبراطورية عبر منظور مؤلفي الساموراي. اضطُرت كتب التاريخ التي نُشرت طوال فترة توكوجاوا إلى تقييم ثورة كينمو الإصلاحية، التي تمت في عهد الإمبراطور جو دايجو

عام ١٣٣٣. هل كان بلاطه الجنوبي هو السلالة الإمبراطورية الشرعية التي تعرضت للظلم؟ هل كان آشيكاجا تاكاوجي متمردًا عادى المؤسسة الإمبراطورية، أم كان قائدًا ملهمًا اضطُر إلى إنشاء شوجونية جديدة بمجرد أن وقعت قيادة جو دايجو في الفوضى؟ هل تجب شيطنة تاكاوجي أم تمجيده؟ وماذا تعني إجابات تلك الأسئلة بالنسبة إلى شرعية المحارب التي ترتبط بنسب الأباطرة الإلهي المفترض؟ لم تسيطر أيٌّ من وجهات النظر على البقية، ولكن عندما استيقظ سكان كيوتو في صبيحة أحد أيام شتاء عام ١٨٦٣ الأخيرة، وجدوا رءوس ثلاثة شوجونات من أسرة أشيكاجا معلقة على طول نهر كامو، وكان من الجلي أن آراء مؤيدي الإمبراطور اكتسبت رواجًا لم يسبق له مثيل. أما اللوحة المصاحبة التي كُتب عليها «انتقام السماء»، فقد نبَّأت بأشياء سيئة ستحدث للشوجونية مستقبلًا. كانت السماء في هذه الحالة تحابي المؤسسة الإمبراطورية وليس شوجونات أشيكاجا الذين ورثوا ميراث تاكاوجي.

كانت حقبة توكوجاوا هي ذروة سيطرة المحاربين في تاريخ اليابان، وخاصةً سلطة الشوجونية على البلاط. ولكن لا يجب فهم السيطرة السياسية على أنها غياب تام للنفوذ السياسي للبلاط. فقد انتشر احترام الإمبراطور والإرث الإمبراطوري بين أفراد الساموراي في النصف الأخير من حقبة توكوجاوا، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى كتابة التاريخ.

في القرن السابع عشر، بدأت مقاطعة ميتو، تحت قيادة عائلة سادة تمتُّ بصلة قرابة لعشيرة توكوجاوا نفسها، مشروع كتابة تاريخ ضخم بعنوان «تاريخ اليابان العظيم»، والذي اكتمل عام ١٩٠٦. كما هي الحال مع العديد من الأعمال الأكاديمية في اليابان قبل القرن العشرين، تأثر النص بالفكر الصيني، وفي هذه الحالة، بالكونفوشية الجديدة. كما أنه اتبع الأسلوب الصيني في كتابة التاريخ عن طريق تتبع التغيرات عبر الزمن من خلال نسل الإمبراطور. استخدم معلمو الساموراي محتوى هذا المشروع كمواد تعليمية، وأثَّر تركيزه على الأباطرة في أجيال عديدة من الساموراي الذين أخذوا على محمل الجد موضوعَي الولاء والهيبة الإمبراطورية المرتبطين أحدهما بالآخر. عندما وصل بيري، كان الكتَّاب الذين تأثروا بطيف واسع من تيارات الفكر، بدءًا من التعاليم الصينية القديمة، وصولًا إلى التعاليم الوطنية حول اليابان، وحتى أولئك الذين كرَّسوا حياتهم لدراسة النصوص الأوروبية المستوردة، قد أقنعوا الكثيرين بأن عشيرة توكوجاوا وشوجونيتها لم تحكما إلا بأمر نابع من العطف الإمبراطوري.

ارتبط الاحترام المكتسب حديثًا للمؤسسة الإمبراطورية بالسياسة الخارجية التي أفضت إلى نتائج كارثية. في عام ١٨٤٦، صدر مرسوم إمبراطوري يأمر الشوجونية ببناء

دفاعات ساحلية. وفي عام ١٨٥٨، رفض الإمبراطور محاولة الشوجونية الحصول على موافقة لاحقة على المعاهدة التجارية التي وقعتها مع الولايات المتحدة. بلغت الانتقادات التي وجهها النبلاء والسادة وأفراد الساموراي، وحتى بعض العامة، إلى الشوجونية ذروتها، مما أدى إلى عنف غير مسبوق. في عام ١٨٦٠، هاجمت مجموعة من الرونين التابعين لمقاطعة ميتو موكب مستشار كبير لدى اقترابه من قلعة إيدو. فقتلوا الحراس الذين كانوا يضعون سيوفهم في أغمدتها لحمايتها من الثلج، واغتالوا المستشار، لي ناوسوكي، وهو لا يزال في هودجه. على مدار ستينيات القرن التاسع عشر، غادر الساموراي من جميع أنحاء اليابان، وكان معظمهم من ذوي الرتب الدنيا والعاطلين عن العمل، أراضيهم إلى كيوتو للالتفاف حول البلاط الإمبراطوري وأفراد الساموراي الموالين المشابهين لهم في التفكير. في الوقت نفسه، بذلت الشوجونية قصارى جهدها لتحقيق انفراجة مع كيوتو وأنصارها، عبر ترتيب زواج بين ابنة الإمبراطور والشوجون. كما أنها استجابت لأمر من البلاط يقضي بإرسال الشوجون إلى كيوتو عام ١٨٦٣، وهو ما يبرز إلى أي مدًى فقدَ النظام العسكري السيطرة على الإمبراطور. ووعدت الشوجونية، المُهانة العاجزة عن رفض أمر الإمبراطور، باتباع أمر إمبراطوري لم تستطع الوفاء به. فالشوجون كان قد وافق، عندما كان يؤدي دوره القديم كقائد «سوف يطرد البرابرة»، على إجبار الأوروبيين على الخروج من اليابان.

على الرغم من أن العديد من السادة لم يلعبوا دورًا يُذكَر في العلاقات السياسية بين كيوتو والشوجونية، ولم يشعروا بتأثير مباشر من الغربيين، كانوا لا يزالون يواجهون ضغوطًا من العامة في مقاطعاتهم. وعلى النقيض من الثورات الأخرى التي اندلعت في تاريخ العالم، لم تشهد اليابان حركة ثورية بين عامة الشعب. كان الفلاحون يشكون من ارتفاع الضرائب وسوء سلوك المسئولين المحليين، لكنهم لم يهاجموا البنية الأساسية لنظام السادة والشوجونية العسكري. فاستعانوا بمفهوم كونفوشيوس عن الإحسان لطلب بعض التساهل، وإذا لم ينالوه، كانوا يحتجُّون. كانت استراتيجية محفوفة بالأخطار، وكان الزعماء في الغالب يُعدَمون، وفي بعض الأحيان كان يُعدَم معهم أفراد أسرهم، ويشمل ذلك الأطفال. أرسلت أشد القرى يأسًا رجالًا إلى إيدو لمناشدة الشوجون نفسه مباشرةً وهو يجوب المدينة في هودج مغطًّى. وكان بالإمكان أن تنجح هذه الخطوة. ففي أحسن الأحوال، كانت الشوجونية ستحقق في أمر المناطق المضطربة، وتجبر السادة على إجراء إصلاحات. وعلى أقل تقدير، كان الاحتجاج سيبرز عدم كفاءة السادة، وقد يؤدي إلى تعرضهم للسخرية والعقاب، مثل مصادرة المقاطعة وتعيين سيد آخر بدلًا منه.

استطاع القرويون ممارسة الضغط الجماعي على السادة، بينما كان بإمكان التجار تضييق الخناق عليهم ماليًّا. فقد كان التجار الأثرياء ورواد الأعمال الريفيون يسيطرون على بعض أفراد الساموراي من الرتب الدنيا، وفي بعض الحالات كانوا يسيطرون على السادة أنفسهم. وبصفتهم مقرضي أموال، كان بمقدورهم تقديم المشورة للسادة حول كيفية تنفيذ إصلاحات اقتصادية داخل المقاطعات. غالبًا ما كان السادة يتطلعون إلى العامة لتوسعة الصناعات التي من شأنها أن تجلب المزيد من الدخل وإيرادات الضرائب إلى المقاطعة. ضمن طبقة الساموراي المتوسطة الذين كانوا يستقطعون رواتبهم وغيرها من الموارد من القرى التي خُصصت لهم في الريف، لجأ العديد منهم إلى تشغيل قرويين في قصورهم في إيدو، أو استجابوا للضغوط التي تقتضي تغيير الأسرة لأساليبها الباذخة، وإلا فلن يتمكنوا من الحصول على قروض في المستقبل. وعندما واجه اقتصاد اليابان الرأسمالية العالمية، تربح التجار في المدن الكبرى من تجارة المنسوجات مع الأوروبيين. كان النشاط التجاري مزدهرًا للغاية، لدرجة أن أسعار السلع ظلت ترتفع بشكل صاروخي طوال ستينيات القرن التاسع عشر، وأدت هذه الزيادات إلى أعمال شغب و«تحطيم» للمخازن التي يُتهم الأثرياء باحتكار السلع فيها. من بين الكثير من الموالين للإمبراطور، كان هناك بعضٌ من العامة، ومنهم النساء، الذين شعروا أن عليهم هم أيضًا أن يلعبوا دورًا، مهما كان صغيرًا، في إرشاد مستقبل اليابان.

بحلول ستينيات القرن التاسع عشر، كان الغموض والعظمة اللذان اكتنفا حكم المحاربين قد تلاشيا، وبدأ أولئك الذين يؤمنون بمفاهيم المحاربين عن الولاء والالتزام وإحداث التأثير، تحركات تمرد في جميع أنحاء اليابان. فهاجموا من رأَوا أنهم الممثلون الأكثر إثارة للاستياء في الشوجونية، مثل لي ناوسوكي، والأعداء داخل مقاطعاتهم الأصلية، وبين النبلاء في كيوتو. أدى التحزُّب في بعض المقاطعات إلى نشوب حروب أهلية محدودة النطاق، شارك فيها بضع مئات من الرجال من كل جانب، وذلك في المقاطعات الخارجية الكبيرة في الجنوب، وفي المقاطعات الأصغر حجمًا الأقرب إلى إيدو، والأكثر ارتباطًا سياسيًّا بها.

لم يمر عام واحد خلال ستينيات القرن التاسع عشر من دون حدوث أعمال عنف لأهداف سياسية. كانت الحقبة السابقة لهذا العقد هادئة نسبيًّا، ولكن تزعزع هذا السلام بسبب التحزُّب، والحروب الأهلية في المقاطعات، والاعتداءات على الأوروبيين وخدمهم في مجتمعات التجار الحديثة الإنشاء في يوكوهاما، وأعمال الشغب في كيوتو وإيدو، والوفيات

غير المتوقعة لشخصيتين سياسيتين رئيسيتين، الشوجون إيموتشي (في عام ١٨٦٦، في العشرين من عمره) والإمبراطور كومي (في عام ١٨٦٧، في الخامسة والثلاثين من عمره). أما الإمبراطور الجديد، ميجي، فكان مجرد مراهق، وكان خاضعًا لسيطرة مجموعة قليلة من نبلاء البلاط وأنصارهم من السادة. أما الشوجون الجديد، يوشينوبو، فكان خليفةً مترددًا. من منطلق عدم رغبته في خوض حرب مع أعدائه في البلاط، ومن منطلق خوفه على حياته دون أدنى شك، «أعاد» لقب الشوجون إلى الإمبراطور عام ١٨٦٧، الأمر الذي مهَّد الطريق لـ «إعادة» الحكم السياسي إلى الإمبراطور ميجي اسميًّا، إن لم يكن فعليًّا. ظل يوشينوبو رئيسًا لعشيرة توكوجاوا، وشريكًا للبلاط والإمبراطور، وقائدًا للساموراي البيروقراطيين التابعين للشوجونية. شنَّ هجومًا على السادة الذين تجمعوا في كيوتو، والذين زعم أنهم يتحكمون في الإمبراطور الشاب. على الرغم من أن تعداد جيشه، الذي بلغ خمسة عشر ألف جندي، كان أكبر من تعداد جيوش المقاطعات الجنوبية الغربية، فإن المعركة التي دارت رحاها في قريتَي توبا وفوشيمي على مشارف كيوتو لم تكن لصالحه. فانسحب إلى إيدو، واستسلمت قوات توكوجاوا إلى الإمبراطور في عام ١٨٦٨.

على الرغم من استسلام يوشينوبو، واصل أنصار عشيرة توكوجاوا، ومن بينهم عدد قليل من الملحقين العسكريين الفرنسيين، القتال ضد السادة الجنوبيين وجنودهم الذين شكَّلوا «جيش الإمبراطور». في واقع الأمر، لم يقاتل أفراد الساموراي المحاصرون بدافع حبهم للشوجونية، فعندما استولى بضعة آلاف من الرجال على سفن الشوجونية وغادروا إلى هاكوداته في الشمال، أسسوا جمهورية، ونصَّبوا فردًا من عائلة توكوجاوا رئيسًا لها. شكلت ٣٨ مقاطعة أخرى في الشمال الشرقي تحالفًا عسكريًّا لمحاربة ٥٠ ألف جندي كانوا قد أُرسلوا تحت راية الإمبراطور من الجنوب.

للمرة الأولى منذ أوائل القرن السابع عشر، حُشد عشرات الآلاف من الجنود للحرب، ولكنهم كانوا مختلفين تمامًا عمن سبقوهم. قبل الحرب بوقت طويل، كانت الشوجونية تعمل على إصلاح جيشها، وتسليحه ببنادق غربية، وتطلب المساعدة من الفرنسيين لإعادة تنظيم تكتيكاتها. وفي الجنوب، كان البريطانيون وغيرهم من الأوروبيين الغربيين يبيعون بنادق متبقية من الحرب الأهلية الأمريكية. كوَّن السادة هناك ميليشيات «مزارعين» للمساعدة في الدفاع عن السواحل، على الرغم من أن أغلب جنود الجيش الذي أُرسل للقتال باسم الملك كانوا من أفراد الساموراي. ومع ذلك، ظهرت الأسلحة التقليدية مثل السيوف والرماح والهراوات والأقواس في ساحة المعركة. دار القتال الأكثر دموية في مقاطعة أيزو

في الشمال الشرقي، والتي كانت تحكمها عشيرة ماتسوديرا. على الرغم من تسليمه كرهينة من قبل ماتسوديرا، لم يتخلَّ إياسو عنهم تمامًا. بعد وفاة إياسو، احتفت العائلات المتفرعة من عشيرة ماتسوديرا بالصلة القديمة بين ماتسوديرا وإياسو، وظلت أحد أنصار الشوجونية الأكثر موثوقية حتى سقوطها بعد قرنين ونصف. بينما تحمل أفراد ساموراي مقاطعة أيزو وطأة حصار قلعة أيزو، اهتمت نساؤهم في داخلها بالجرحى، وحاولن توفير الطعام، وشحنَّ البارود والذخيرة في مدافع بدائية من الخيزران، وعندما سقطت قذائف المدافع على السطح، غطتها النساء ببطانيات مبللة للحيلولة دون اشتعال النيران. على الرغم من توسل الرجال إليهن لعدم فعل ذلك، انضمت نساء الساموراي إليهم في النهاية في المعركة بالسيوف والهراوات، ليكونوا أول من استخدمها في القتال منذ القرن السادس عشر على الأقل. قصت الكثير من النساء شعورهن ليبدون أشبه بالرجال، بل إن واحدة منهن ارتدت ملابس أخيها الميت. وفي النهاية، قُتل نحو ٢٠٠ امرأة خلال القتال. وانتحر ٢٣٠ آخرون، ما بين رجل مُسنٍّ وامرأةٍ وطفل، مخافة أن يتعامل معهم أعداؤهم معاملة تخلو من شرف. بعد مرور سنوات، روى سايجو تانومو، شيخ العائلة الحاكمة لمقاطعة أيزو، قصة انتحار جميع نساء عائلته؛ والدته، وزوجته، وشقيقته الصغرى، وبناته الخمس، كانت أصغرهن في الرابعة من عمرها والأخرى في الثانية. وكتبت كل منهن قصيدة انتحار. كتبت ابنته التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها: «إن أمسكت يدي/وذهبنا معًا/فلن أضل طريقي»، أضافت أختها الكبرى التي تبلغ من العمر ١٦ عامًا: «عندما يحين الوقت، سأمسكها/بينما نغادر نحو الموت على طريق الجبل.»

إرث المحاربين بعد ثورة الإصلاح

في عام ١٨٧٢، وبعد سنوات قليلة فقط من ثورة ميييجي الإصلاحية، ألقى إيتو هيروبومي — وهو فرد ساموراي جنوبي سابق يُعَد من القلة الذين تحولوا إلى الحداثة — خطابًا في سان فرانسيسكو. وصرح قائلًا إنه بغضِّ الطرف عن التاريخ، وعلى الرغم من الحرب الأهلية القصيرة، فقد جرى تدمير النظام الإقطاعي دون «إطلاق رصاصة واحدة أو إراقة قطرة دم». تميل كتب التاريخ في اليابان منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى الوقت الحاضر إلى التقليل من مقدار العنف الذي شهدته فترة الإصلاح. ذهب أحد المؤرخين البارزين في اليابان إلى أبعد حد، فقد اقترح أن ثورة ميييجي الإصلاحية كانت ثورة فريدة في تاريخ العالم؛ لأنها شهدت القليل من العنف مقارنةً بالثورات الحديثة الأخرى، وأن

شكل ٥-٢: تمثل هذه الطبعة الخشبية التي صنعها تسوكيوكا يوشيتوشي تجربته كشاهد على مدى عنف ثورة ميجي الإصلاحية التي حدثت في وينو. على الرغم من أن الكلمات الموجودة على الطبعة التي تعود إلى عام ١٨٦٨ تصف حياة كوماجين هاتشيبي، المتمرد الذي قاتل خلال تمرد شيمابارا في القرن السابع عشر، فإن أسلوب الملبس يعكس بوضوح ملبس أحد أعضاء شوجيتاي. كانت الشوجيتاي واحدة من بين العديد من المجموعات غير النظامية التي قاتلت إلى جانب شوجونية توكوجاوا.

أفراد الساموراي هم من ألغَوا طبقتهم بأنفسهم. خلال عرض تقديمي قصير حول الحاجة إلى إعادة النظر في الطبيعة العنيفة والصادمة لثورة ميجي الإصلاحية، جادل هذا المؤرخ نفسه، وكان جالسًا وسط الجمهور، قائلًا إن من يروِّجون للسياحة المحلية هم أنفسهم المسئولون عن المبالغة في تصوير عنف ثورة الإصلاح بعد مرور وقت طويل

على الحدث. ربما كان محقًّا، ولكن هذا لا يمحو مقتل أكثر من ١٣ ألف شخص خلال النصف الثاني من ستينيات القرن التاسع عشر، لقي أغلبهم حتفه خلال حرب بوشين التي بدأت بعد استسلام يوشينوبو، وانتهت عام ١٨٦٩. وبهذا يظل الجدل قائمًا حول ثورة ميجي الإصلاحية حتى بعد مرور ١٥٠ عامًا عليها، حتى الموتى لم ينالوا حقهم.

أدت ثورة ميجي الإصلاحية إلى إلغاء كامل للشوجونية، ونحو ٢٨٠ مقاطعة متبقية، ورتبة المحارب نفسها. طلبت حكومة الأقلية التي كانت قد تشكلت حديثًا بعد ثورة ميجي الإصلاحية من السادة في البداية أن «يعيدوا» أراضيهم إلى الإمبراطور طواعية، الأمر الذي أدى إلى إنهاء رتبتهم. أول من تنازل عن أراضيه هم كبار السادة الذين كانوا يحكمون مقاطعات كبيرة، والذين قادوا عملية الإصلاح. بعد ذلك، أجبرت الحكومة جميع السادة على فعل المثل. جرى نقل البعض إلى أماكن أخرى في جميع أنحاء البلاد ليصبحوا حكامًا للمحافظات الجديدة التي أُنشئت، والتي يبلغ عددها ٧٢ محافظة، لكن لم يُنقل الكثيرون. في الغالب، لم يتحسر السادة على أوضاعهم الجديدة. فكانوا يحصلون على عوائد تضمن لهم تقاعدًا مريحًا. حتى قبل ثورة ميجي الإصلاحية، طلب عدد قليل من السادة من الشوجونية أن يتولَّوا زمام الأمور في مقاطعاتهم؛ لأن الاستمرار في محاولة حكمها لم يكن يستحق الجهد المبذول.

كانت ردود أفعال أفراد الساموراي على انتهاء نظام الرتب متباينة. استبدلت الحكومة التي جرى تشكيلها حديثًا راتب الساموراي التقليدي بسندات يتم شراؤها على الفور من قبل البنوك الوطنية. استفاد بعض من أفراد الساموراي أصحاب الرتب الدنيا من هذه المعاملات، واستخدموا المال في إنشاء مصانع وشركات تجارية. أما أفراد الساموراي من الرتب العليا، فلم تساعدهم سندات الراتب على أن يحيَوا حياة كريمة.

علاوةً على ذلك، انتهت الآثار المادية لامتيازات الساموراي؛ فلم يعد بإمكان أفراد الساموراي حمل السيوف أو قص شعرهم بطريقتهم المميزة. كما أنهم لم يعودوا يحتكرون الجيش الذي فتح بابه أمام جميع الذكور. كان أفراد الساموراي السابقون في الحكومة هم من سنَّ هذه القوانين، ولكن في داخل البيروقراطية نفسها كانت هناك الكثير من الآراء المتعارضة. في عام ١٨٦٩، اقترح أحد هؤلاء المسئولين في المجلس الاستشاري الذي كان قد شُكِّل حديثًا عدم السماح بحمل السيوف في الأماكن العامة من جانب أي شخص باستثناء الشرطة والجيش والمسئولين الحكوميين. فطُرد من المجلس، وخُفضَت رتبته، وهُدد بالقتل. قضى المجلس نفسه وقتًا في التباحث حول مسألة ما إذا كان ينبغي

إلغاء السيبوكو أو لا، أطول من الوقت الذي قُضي في التباحث حول كيفية التعامل مع الدول الغربية؛ وقد صُوِّت ضد إلغاء السيبوكو بنسبة ٢٠٠ إلى ٣، واغتيل الرجل الذي اقترح الفكرة.

بعد إلغاء رتبة الساموراي، واجه العديد منهم صعوبة في العثور على وظائف تتناسب مع خبراتهم. كما أن أفراد الساموراي لم يتدربوا على التعامل بالمال، بل كان الابتعاد عن الشئون المالية مصدر فخر لهم خلال حقبة توكوجاوا، فقد كان التعامل بالمال يُعَد حينها علمًا يختص به التجار الأنانيون. أصبح بعض المحاربين السابقين فقراء مدقعين، لدرجة أنهم اضطُروا إلى بيع سيوفهم ودروعهم وغيرها من مقتنيات الساموراي، التي أصبحت تملأ حينذاك المتاحف الغربية، واضطُروا إلى التفريط بتذكارات عائلاتهم الثمينة ليتمكنوا من البقاء على قيد الحياة. وعلى النقيض تمامًا، شعر آخرون بالسعادة نتيجة تحررهم من قيود طبقتهم السابقة، حيث أصبح بإمكانهم وقتها العمل في أي مجال يرضيهم. تقول حفيدة أحد أفراد الساموراي، التي نشرت تاريخ عائلتها لاحقًا، إن جدها، الساموراي من مقاطعة ميتو، كان سعيدًا بسقوط النظام القديم. فقد وجد أنه من الأسهل بالنسبة إليه أن يكسب قوت يومه، على الرغم من أنه خسر راتبه التقليدي مثل جميع أفراد الساموراي.

بعيدًا عن تمجيد الساموراي، اعتبر العديد من اليابانيين في أواخر القرن التاسع عشر أن الساموراي طبقة عفا عليها الزمن، مصدر حرج، غير منتجة، عديمة الجدوى. وبدلًا من الهوس بطائفة الساموراي، انتشر في المجتمع ولع بكل ما هو غربي، حتى الملابس. هدمت الحكومات المحلية القلاع المهجورة في مقاطعاتها. في مقاطعة أيزو، باعت الحكومة المحلية الحديثة التشكيل الأراضي المحيطة بالقلعة التي شهدت أغلب المعارك. وفتحت المبنى أمام السياح المحليين مدة ٢٠ يومًا من أجل مشاهدته قبل أن تهدمه وتبيع المواد المتخلفة منه في المزاد العلني. ولم يقدِّم أحد عرضًا سوى رجل واحد. بيعت الأراضي حول القلعة إلى مزارعين محليين.

لكن بحلول نهاية القرن التاسع عشر، مثَّل الساموراي القوة المزعومة لليابان التقليدية الفريدة من نوعها. من بين أفراد الساموراي السابقين المشهورين الذين تحولوا إلى مفكرين حداثيين، فوكوزاوا يوكيتشي، الذي تظهر صورته على عملة العشرة آلاف ين، والذي اشتهر باحتفائه بانتهاء نظام الرتب وشوجونية توكوجاوا. ورغم ذلك، تحسَّر لاحقًا على اختفاء روح الساموراي التي جسَّدها «الخاسرون» في ثورة ميجي الإصلاحية، مثل جنود أيزو المهزومين، وساموراي شوجونية توكوجاوا. من جهة أخرى، أصبح العديد

من الجنود المهزومين سابقًا يعملون في حكومة الأقلية التي شكَّلها ميييجي، وحظي رجال مقاطعة أيزو، الذين كان يُنظَر إليهم في السابق على أنهم أعداء مكروهون للإمبراطور، باحترام جديد ممن يمجِّدون اليابان بوصفه بلدًا عسكريًّا.

عندما بدأت اليابان حروبها ضد الصين (١٨٩٤–١٨٩٥) وروسيا (١٩٠٤–١٩٠٥)، روَّج الأيديولوجيون للفكرة القائلة بأن جميع اليابانيين أصبحوا من الساموراي. أُدخل الكيندو، وهو نوع حديث من المبارزة بالسيوف تُستخدم فيه الدروع ونظام احتساب النقاط، إلى نظام التعليم، لغرس روح المحارب في نفوس الأطفال. وأصبحت التضحية بالنفس وحب الإمبراطور موضوعًا رئيسيًّا في الأدب والأفلام وكتب المناهج الدراسية للمرحلة الابتدائية. أُعيد نشر كتاب «هاجاكور» — الذي كان في أحسن أحواله كتابًا هامشيًّا في السابق — في أوائل القرن العشرين، وحظي بقاعدة قراء واسعة، خاصة خلال ثلاثينيات القرن العشرين في ذروة الفاشية اليابانية.

وماذا عن «طريق الساموراي»؟ لم يحظَ بتأثير كبير بين صفوف عامة الشعب مثلما كان بين المسئولين الحكوميين والعسكريين ذوي الرتب المرموقة. يُرجِع أغلب الناس الفضل إلى نيتوبي إينازو في تعريف جمهور العصر الحديث بقانون بوشيدو في كتابه «بوشيدو: روح اليابان»، نُشر عام ١٩٠٠ باللغة الإنجليزية للجمهور الأمريكي. قبل نحو عقد من نيتوبي، وصف الصحفي والسياسي أوزاكي يوكيو قانون بوشيدو بأنه النسخة اليابانية من الشهامة، والذي يقابله مفهوم الفروسية في أوروبا. لم يذكر مفهومه أي شيء عن براعة القتال أو التضحية بالنفس. وخلال تسعينيات القرن التاسع عشر، رد المثقفون على كتابات أوزاكي عن قانون بوشيدو. فاستخدم البعض المصطلح لوصف حيوية التجارة، بينما دعا آخرون إلى نسخة مسيحية من بوشيدو، ولكن لم يُفرَض تعريف واحد للمصطلح حتى القرن العشرين. عاش نيتوبي في الولايات المتحدة خلال الانتشار الأول لقانون بوشيدو في اليابان، وعندما نُشر كتابه باللغة اليابانية، لم يلفت انتباه أحد سوى المثقفين المهتمين الذين اعتبروه صغيرًا جدًّا ومتأخرًا جدًّا. ولكن روَّج الفيلسوف إينويه تتسوجيرو لمفهوم بوشيدو على أنه مخزون للقومية، وخدمة الإمبراطور، والتضحية بالنفس. كانت هذه الموضوعات، وتاريخ الساموراي بوجه عام، محطَّ تركيز الدعاية خلال الحرب العالمية الثانية. ظهر الساموراي في المناهج الدراسية، وتعلم الأولاد المبارزة اليابانية في المدارس، وتدربت الفتيات على استخدام النبوت (ناجيناتا)، وهو عبارة عن عصًا طويلة يُثبت في طرفها نصل مُنحنٍ.

بعد الحرب العالمية الثانية، أصبحت صورة الساموراي التي انتشرت خلال وقت الحرب من المحرمات. وتعرضت أفلام الساموراي، وهي لون سينمائي شهير حتى في عصر الأفلام الصامتة، للرقابة من جانب قوات الاحتلال الأمريكية. كان لا يزال بإمكان المخرجين صناعة أفلام الساموراي، لكن لم يكن يُسمح لهم بتمجيد العنف، أو التضحية بالنفس، أو الولاء للإمبراطور. حدثت طفرة في أفلام الساموراي خلال خمسينيات القرن العشرين بعد انتهاء الاحتلال، حيث ظهرت أفلام كلاسيكية، مثل «الساموراي السبعة»، للمخرج أكيرا كوروساوا، لكنها لم تعد تصوِّر نسخة قومية متطرفة عن الساموراي. كما منعت قوات الاحتلال الأمريكية تدريبات الفنون القتالية التي رأت أنها وسيلة أخرى لنشر قانون بوشيدو الخطر والأيديولوجية الفاشية. حتى مع عودة فنون قتالية مثل الكيندو للظهور، ركزت على التعاون والمنافسة، مع التقليل من أهمية قابلية التطبيق القتالي.

خلال فترة النمو الاقتصادي الكبير الذي بدأ في ستينيات القرن العشرين، أصبح «موظف المكتب» النمطي ذو البذلة الداكنة هو الساموراي الجديد. أصبح يُلقَّب باسم «محارب الشركات»، فهو يظل مخلصًا لشركته ولا يفكر في تركها مطلقًا من أجل صفقة أفضل في مكان آخر؛ على النقيض من المحارب في العصور الوسطى الذي كان ينتقل بسهولة من جانب إلى آخر، أو يخون سيده. أما بالنسبة إلى التضحية بالنفس، فقد كانت الاستثناء الذي يؤكد قاعدة الحفاظ على النفس للمحاربين القدامى، ولكن كان يُتوقَّع من ساموراي الشركات أن يضحي برفاهيته من أجل الشركة. قد يتساءل المرء، كيف يمكن أن يؤثر استخدام صورة أكثر دقة عن الساموراي من الناحية التاريخية في الثقافة والتجارة والسياسة اليابانية في المستقبل.

المراجع

الفصل الأول

Bonnie Rochman, “Samurai Mind Training for Modern American Warriors,” *Time*, September 6, 2009.

Yamamoto Tsunetomo, *Hagakure*, trans. Alexander Bennett (Tokyo: Tuttle, 2014), 60.

الفصل الثاني

For a full English translation of the law code, see David Lu, *Japan: A Documentary History* (Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1997), 1:109–15.

Statement from Japan’s 1869 government: Margaret Mehl, *History and the State in Nineteenth-Century Japan* (New York: St. Martin’s Press, 1998), 1.

الفصل الثالث

Peter D. Shapinsky, *Lords of the Sea* (Ann Arbor: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 2014), 6, 106.

David Lu, ed., *Sources of Japanese History* (Armonk, NY: M. E. Sharpe, 2015), 1:153–54.

Obata Kagenori, *Koyō Gunkan jo*, ed. Koshihara Tetsurō (Tokyo: Kyōikusha, 1979), 40:69.

Donald Keene, *Yoshimasa* (New York: Columbia University Press, 2006), 15–22.

Hōjoō Sōun letter: Translation my own. For alternative translation of full text, see Carl Steenstrup, "The Imagawa Letter," *Monumenta Nipponica* 28, no. 3 (Autumn 1973): 299–315.

Twenty-One Articles: Translation my own. For full version of alternative translation, see Carl Steenstrup, "Hojo Soun's Twenty-One Articles," *Monumenta Nipponica* 29, no. 3 (Autumn 1974): 283–303.

الفصل الرابع

Richard Cocks diary: This version from Constantine Vapori, *Voices of Early Modern Japan* (London: Taylor & Francis, 2018), 63.

Relocation of lords: Harold Bolitho, *Treasures among Men: The Fudai Daimyo in Tokugawa Japan* (New Haven, CT: Yale University Press, 1974), 8.

Advisor scolds heir: Constantine Vaporis, *Tour of Duty* (Honolulu: University of Hawai'i Press, 2016), 19.

Insults to Tokugawa: Albert Craig, *Choshu in the Meiji Restoration* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1961), 22.

Sumurai complains about poor warriors: Buyō Inshi, *Lust, Commerce, and Corruption* (New York: Columbia University Press, 2014), 56.

Kian dreamed of becoming a warrior: Yoshida, *Hei to nō no bunri* (Tokyo: Yamakawa Shuppansha, 2008), 97–101.

الفصل الخامس

Hayashi Hōkō explains the heart of being warrior: Quoted in part from *Sources of Japanese Tradition*, vol. 2, part 1, *1600–1868* (Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1997), 361.

Buyō Inshi, *Lust, Commerce, and Corruption* (New York: Columbia University Press, 2014), 43.

Jippensha Ikku and Thomas Satchell, trans., *Shank's Mare* (Boston: Tuttle, 1960), 339.

Saitamaken, *Shinpen Saitamaken-shi Shiryohen* (Urawa, Japan: Saitamaken, 1979), 742–43.

Translated by Anne Walthall in *Politics and Society in Japan's Meiji Restoration: A Brief History with Documents* (Boston: Bedford St. Martin's Press, 2017), 141.

قراءات إضافية

تاريخ عام

Friday, Karl, ed. *Japan Emerging: Premodern History to 1850*, New York: Routledge, 2012.

Hane, Mikiso, and Louis G. Perez, *Premodern Japan: A Historical Survey*, Boulder, CO: Westview, 2015.

أصول المحارب

Farris, William W. *Heavenly Warriors: The Evolution of Japan's Military, 500–1300*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 2010.

Friday, Karl F., *The First Samurai: The Life and Legend of the Warrior Rebel Taira Masakado*, Hoboken, NJ: Wiley, 2008.

سلطة المحاربين الأوائل

Friday, Karl F., *Hired Swords: The Rise of Private Warrior Power in Early Japan*, Stanford, CA: Stanford University Press, 1996.

Lu, David J., *Japan: A Documentary History*, Armonk, NY: M. E. Sharpe, 2005.

Mass, Jeffrey P., *Antiquity and Anachronism in Japanese History*, Stanford, CA: Stanford University Press, 1995.

Mass, Jeffrey P., *Yoritomo and the Founding of the First Bakufu: The Origins of Dual Government in Japan*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1999.

Mass, Jeffrey P., and Takeuchi Rizo, *The Kamakura Bakufu: A Study in Documents*, Stanford, CA: Stanford University Press, 1976.

Oyler, Elizabeth, *Swords, Oaths, and Prophetic Visions: Authoring Warrior Rule in Medieval Japan*, Honolulu: University of Hawai'i Press, 2006.

الحرب والثقافة

Berry, Mary E., *The Culture of Civil War in Kyoto*, Berkeley: University of California Press, 1997.

Berry, Mary E., *Hideyoshi*, Cambridge, MA: Council on East Asian Studies, Harvard University, 1990.

Conlan, Thomas, *State of War: The Violent Order of Fourteenth Century Japan*, Ann Arbor: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 2004.

Friday, Karl, *Samurai, Warfare and the State in Early Medieval Japan*, New York: Taylor & Francis, 2005.

ōta, Gyuīchi, trans. *The Chronicle of Lord Nobunaga*, Edited by J. S. A. Elisonas and Jeroen Pieter Lamers, Leiden: Brill, 2011.

Shapinsky, Peter D., *Lords of the Sea: Pirates, Violence, and Commerce in Late Medieval Japan*, Ann Arbor: Center for Japanese Studies, University of Michigan, 2014.

المحاربون: أواخر القرن السادس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر

Bolitho, Harold, *Treasures among Men: The Fudai Daimyo in Tokugawa Japan*, New Haven, CT: Yale University Press, 1974.

Hanley, Susan B., *Everyday Things in Premodern Japan: The Hidden Legacy of Material Culture*, Berkeley: University of California Press, 1997.

Katsu, Kokichi, and Teruko Craig, *Musui's Story: The Autobiography of a Tokugawa Samurai*, Tucson: University of Arizona Press, 2003.

Totman, Conrad D., *Early Modern Japan*, Berkeley: University of California Press, 1995.

Vaporis, Constantine N., *Tour of Duty: Samurai, Military Service in Edo, and the Culture of Early Modern Japan*, Honolulu: University of Hawai'i Press, 2016.

Yamakawa, Kikue, *Women of the Mito Domain: Recollections of Samurai Family Life*, Translated by Kate W. Nakai, Stanford, CA: Stanford University Press, 2001.

أسطورة المحارب وموروثه

Benesch, Oleg, *Inventing the Way of the Samurai*, New York: Oxford University Press, 2016.

Buyō, Inshi, Mark Teeuwen, Kate Wildman Nakai, Noah Arlow, and John Breen, trans. and eds., *Lust, Commerce, and Corruption: An Account of What I Have Seen and Heard, by an Edo Samurai*, New York: Columbia University Press, 2017.

Goro, Shiba, and Teruko Craig, trans., *Remembering Aizu: The Testament of Shiba Goro*, Ishimitsu Mahita, Honolulu: University of Hawai'i Press, 1999.

Jaundrill, D. C., From *Samurai to Soldier: Remaking Military Service in Nineteenth-Century Japan*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 2016.

مصادر الصور

(2–1) Tomoe Gozen dressed in armor (British Museum, AN433673001).

(2–2) A Japanese crab (Author’s collection).

(2–3) Warrior, said to be Yoritomo (Jingo–ji Temple).

(3–1) Eighteenth century armor (Metropolitan Museum of Art; armor: Bequest of George C. Stone, 1935; horns (kuwagata): Gift of Bashford Dean, 1914).

(3–2) Himeji Castle (Pxhere).

(3–3) Hand scroll scene of Battle at Rokuhara (Metropolitan Museum of Art, Mary Griggs Burke Collection, Gift of the Mary and Jackson Burke Foundation, 2015).

(3–4) Shibata clan warrior (Metropolitan Museum of Art, Purchase, 2003 Benefit Fund, 2004).

(3–5) Hanazuka (Nose Mound)/Mimizuka (Ear Mound). (KENPEI, unmodified, CC BY–SA 3.0).

(5–1) Master in the outhouse (Hokusai Manga, vol. 12, Brigham Young University collections).

(5–2) Woodblock print by Tsukioka Yoshitoshi (Rijksmuseum, RP–P–2002–366).

هنـــداوي